البكاء بصمت

(مجموعة قصصية)

شموع بنت محمد الزويهري

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزويهري، نوال محمد

البكاء بصمت./ نوال محمد الزويهري. - الرياض، ١٤٢٨هـ

٢٠٨ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ١-٣٨٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣،٠١٩٥٣١ ٨٢٥٢/ ١٤٢٨

رقم الإيداع: ٨٢٥٢/ ١٤٢٨

ردمك: ١-٣٨٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هي انكسارات ...

سكنت بعض الأفئدة فحولتها إلى أشبه ما تكون بكومة مشاعر مطعونة وكرامات متساقطة...

نحن لسنا أمام جيل من أجيال مدرسة «أبولو» ولكننا أمام الواقع المرير لبعض الدموع الحائرة...

شموع الزويهري

Candil - zo Jawab.com

آه يا ولدي...!!

بكت وهي تشتكي له آلامها... رجته إيصالها إلى المستشفى رجاء يتخلله دعاء صادق من أعماق أحشائها الحنونة !..

أشار إليها بوجهه الذي تتخلله خطوط الصرامة والغضب: هيا... هيا!!.

جلس خلف مقود السيارة وهو يتضجر ويزمجر .. كل يوم .. كل يوم مستشفى... لقد تأخرت عن موعدي... وبجوّ خانق أخرجه بنفثات ضبابية كريهة من الدخان الكثيف قاد السيارة بسرعة جنونية... وفجأة توقف!!!

وقال: تفضلي هذه المستشفى؛ هناك قادها وأجلسها على كرسي مرصوص بجانبيه عدد من نوعه... ودسَّ في يدها ورقة من فئة الخمسين ريالاً وكارتاً يخص إحدى المؤسسات... وأخبرها بأن هذا الكارت هو رقم دخولها العيادة !!!...

وما عليها سوى الانتظار حتى يُنادى على اسمها...

وانطلق كالريح العاتية ينهب الأرض نهباً...

ولكن إلى أين ؟؟؟.

مضى الوقت ثقيلاً على هذه المسنة البائسة، وعقارب الساعة تمضي ثوانيها باضطراد لا تعلم عن لحظات الجحود في حياتها، وهي تسيرُ نحو غدٍ غامض ليس له وضوح..

قــاتم.. يتساوى بدرجة نظرها الضعيف، فهــي لا تكاد ترى غير أبواب موصدة فهمت منه أنها العيادات المتخصصة !.

وطال الأمل في نفسها، فلم يُناد على اسمها بعد!.

والليــل طويل وما لبثت الحركة أن سكنــت وهدأ الضجيج وتلفتت لعلها تجد من تكلمه... لكنّ لا أحد فالكل ذهب!.

وفي تمام الثانية عشرة ليلاً دارت الأفكار في رأسها... ربما... وربما ... ولم يفقها إلا صوت امرأة تُنادي عليها:

يا خالة،... يا خالة،...

تبدّد السكون في أذنيها ونطقت مَن؟.

ـ هل جاء دوري يا ابنتي؟.

ـ فردت المنادية: أي دور؟.

ـ دوري، فأنا أراجع عيادة السكر!.

وصعقــت المرأة لما سمعت، استفسرت منها وعرفت أن ابنها قد أوصلها إلى المستشفى، وهي تنتظر دورها الذي طال!.

صمتــت محدثتها برهة ثــم، وبنوع من الحيلة استطاعــت إقناعها بأن الدكتــور ذهــب في حالة عاجلة، ولــن يحضر قبل غد... ورجتهــا بأن تأتي معها؛ لتتصل بابنها!..

وافقت العجوز بصعوبة وذهبت معها.

لم يستقرّ بها المقام في منزل هذه المحسنة حتى أخبرتها بالحقيقة وأن ابنهـا قد وضعها في إحدى الأسواق التجارية وأن الأبواب التي رأتها ماهي إلا محلاتٍ تجارية وطلبت رقم هاتفه واسمه...

صعقت العجوز لما سمعت ... وبنحيب يتفطّر له القلب رفضت إعطاءها أي معلومات عنه!.

مضى أسبوعان على وجودها عند هذه العائلة الكريمة... ولكنها بدأت تشعر بثقلها على هذه الأسرة الصغيرة، فطلبت منهم مشكورين إيصالها إلى دار المسنين...

تمَّ لهـا مـا أرادت وصارت إحـدى نزيلات الدار، وكانـت هذه المحسنة تزورها كل ثلاثة أيام وتؤانسها!!.

وبعد عدة أسابيع من إقامتها في هذه الدار ذهبت كالعادة لزيارتها ولكن!

لم تجدها بل وجدت سريرها خالياً..!!

سألـت عنها فأخبروها بأنها توفيـت أمس، وهي تطبق بين أناملها على مبلغ الخمسين ريالاً والكارت بشدة!

بكـت وتأملّـت حالتها، فعرفـت بأن لبعضـ الجروح آلامـاً لا يمكن أن تسكـن، خاصة ممن سكنوا القلوب، فلم تتحمـل المعاناة، وفضلت الرحيل بصمت!!!

جراحات بلا موعد!!

قد نسافر كقطرات مطر تائهة تبحث لها عن جفاف.. قد تهاجر مخيلاتنا وأمانينا بل وأحلامنا بعيداً عن الواقع المر لما نعيشه حقيقة... ولكن حتماً سنفيق ونبتلع أوضاعنا وأوجاعنا شئنا أم لم نشأ!

هذه أحداث حقيقية يعيشها أصحابها، وهم يجاهدون لحظات الفزع لاهثين؛ بحثا عن الأمان... والاستقرار.

شقَّ صياح الديك سكون الصمت معلناً انبلاج فجرٍ جديد الله وحده يعلم ماذا يحمل بين جنباته من أحداث دامية تخيم على منزل تلك المسكينة البائسة!

انتصبت عائشة تحمل وجع الأيام واقفةً تهلل وتحمد الله على كل حالٍ هي فيه ...

لقد صدمتها الأيام بوفاة زوجها الثاني بعد وفاة أخيه قبله بسنوات مرت، كانَ حصادُها اثني عَشَر طفلاً انضم بعضهم إلى بعضٍ يتقاسمون أمّا واحدة وأبوين.

بدأت الأصوات تتمازج في بهو المنزل العتيق ودبت الحركة في أركانه إلا أن بعض هذه الحركة يشوبها نوع من الذهول... الحيرة.. فهناك أربع فتيات في عمر الزهور قد وجدت الإعاقة طريقها إلى أرجلهن الغضة وأناملهن الرقيقة... وقفت الأم تدعو الله أن يعينها على ماهي فيه... فهي

لا مساعد لها غيره سبحانه وتعالى، وبينما هي تهم بإعداد الطعام لتلك الأفواه... إذا بالباب يُطرق بشدة..!

- من؟! قالتها مرتابة!!

- أنا «نمشة» افتحي يا أمي، بسرعة !!

فتحت عائشة وهي لا تصدق عينيها.. فهذه بِكْرُها الحبيبة، ولكن!..

ماهي الحكاية؟ فالشحوب يُخيِّم على وجهها المشرق، ويطمس معالم العافية في كل قسماته، والهزال يحتل جسدها الذي بات متهالكاً ونظراتها التائهة لا تستطيع أن توضح لوالدتها شيئاً!!.

ضمّتها إلى صدرها، وهي ترحب بها وتتساءل عن زوجها.

قالت: إنه أنزلها ورجع إلى قريته، فهو لا يستطيع البقاء وترك شؤونه لأحد!

عادت عائشة لإعداد الطعام، ولكن . . . ماهي إلا برهة، وقد تناهى إلى أسماعها صوت ارتطامٍ على الأرض!.

لقد كانت «نمشة» سقطت مصابة لتدخل بحور الغيبوبة!

صرخت والدتها، وهي تحاول إسنادها إليها وطلب يد المساعدة من والدتها العجوز ذات السبعين عاماً لتفعلَ شيئاً.

تحاملت والدة عائشة على نفسها، محاولة النهوض وطلب النجدة من الجيران.

حملوا «نمشة» إلى أقرب مستوصف، فتَّم تحويلها بسرعةٍ إلى مستشفى بيشة العام حيث تسكن، وشُخِّصت الحالة: «أورامٌ سرطانية نَشِطَة»!.

بكت عائشة وحاولت الصمود حين أخبرها الطبيب المشرف على الحالة بضرورة نقلها في أسرع وقت ممكن إلى مدينة الرياض وإدخالها المستشفى لخطورة الحالة!

أطرقت وصممت الذهاب إلى زوج ابنتها؛ لتعلمه بالأمر... ولكنه صمت حين ذهبت إليه على وعد منه بالتصرف غداً!!!

«وما أطول غدٍ» قالتها عائشة بزفرة حارة خُتمت بأنهار من الدموع، حين أتى ذلك الغد الجاحد تفاجأت بذلك الزوج يرسل ورقة طلاق ابنتها؛ خلاصاً منها ومن مرضها!.

«لا حول ولا قوة إلا بالله» تمتمت بها، وهي تتوسم الأمل الأخير بعد الله بأخيها «أحمد» ولكن!

ما أقسى الجروح حين تهاجمنا من كل جانب فتمثل لنا حلقة دائرية من الأشواك والأوجاع.

وقتها بات كل شيء بلا قيمة ولا معنى!

لقد صدمت به أيضاً، وهو يقول لها: «ليس عندي أي استعداد لعمل شيء لها احمليها بسرعة حتى لا نصاب بمرضها»!!

وكردة فعل غاضبة عارمة اجتاحت أعماقها.. جمعت كل ما لديها في المنزل من متاع وعرضته للبيع وحملت أطفالها بشرود نظراتهم وشحوبها وضمت ابنتها على صدرها واستقلت مركبة إلى الرياض، مودعةً بها (بيِّشَة) ومن فيها، وما عليها..

تضـرب بخطواتهـا الأرض برفقـة والدةٍ طاعنـة في السـن ومستقبلٍ مجهول يحفّه الغموض والحيرة!.

وضعت أقدامها، وهي تدفع ابنتها بالعربة على أرض المستشفى، فارتاح خاطرها، وهي تودعها للبحث عن مسكن لأخواتها!!!

كانت تحلم بشفاء «نمشة» وضمها إلى إخوتها والبحث عن عمل لتربية أطفالها، ولكنها لم تكن تعلم بأن «نمشة» ذات العشرين ربيعاً قد ماتت في أعماقهـا الرغبةُ في الحيـاة... قد نظرت إلى من حولهـا، وكأنهم سحاب صيفٍ عابر يتحركون فيصمتون وتسكن حركتهم في لحظةٍ ما..!.

فهنـاك في قلبهـا ورقة تحترق... تتعفن أضحت تنظـر إلى البشر على أنهم تماثيل فارغة تعكس ما يجول في كيانها من أوجاع ومرارة، تخرج من حلقها المختنق بالعبرات أوجاع ومرارة تخترق حلقها المختنق بالعبرات!!!

لم يستمـر نبضهـا كثـيراً، إذ فصلت إحـدى رجليها، وصـارت تتلقى الطعام من خلال أنبوب عبر فتحة أنفها...

نظـرت إلى من حولها من ممرضات... إلى مـن حولها من مرضى... إلى غـروب الشمـس بأشعتهـا الصفراء عـبر نافذتها... وتوقـف نبضها ورحلت بصمت!.

تلقّـت والدتها الخبر الذي نـزل على روحها كالصاعقـة في ليلةٍ حالكة السـواد تشوبها الريـاح الماطرة فشُلّت حركة يدهـا المرتعشة، ولم تقوَ على رفعهـا لصّـد هجوم تلـك الدموع ومنعها مـن الخروج إلى العـالم وصارت نظراتها تائهةً ضائعة لا ترمي إلى هدف...

حتى زوايـا وأركان منزلها صارت تمثل لها أحزانـاً قابعة تتوشحّ منديلاً مغموساً بالأكدار يُرثى لحاله، فغابت معظم الكلمات من لسانها وتلعثمت!.

دخلـت عليها جارتها الجديدة التي سبق أن زارتها أمس وسلمت عليها وسألتها عن حالها الآن...

رفعت نظرها صوب لا شيء، وقالت: ... عايشة!!.

جواز سفر!

شق النور عباب السماء متسللاً إلى بهو ذلك المنزل... واستيقظ الجميع... وكعادة «نوف» نهضت؛ لتعدَّ الطعام، وتعتني بأمور منزلها !!

وتجري الأيام في حياتها كأنها قطرات مطر منهمر تستقبلها الأرض العطشى فتضمها بحنان وشغف، ولكن... لا تلبث أن يتلاشى هذا الحنين لتطلب المزيد!!

أما الوفاء بالعهد ذلك الشيء المتأصل في عروق الأوفياء.. فلا يشعر به غيرهم.. تجدُه زيفاً اتُخِذَ ستاراً لأخطاء الخائنين وهفواتهم.

وهاهي نوف تستعيد أيام زواجها الأولى وتستعذب حلاوتها؛ لتنسى مرارة ما تعيشه من واقع!

تراءت لها صورة ذلك الزوج الحنون الودود الذي يسعى جاهداً؛ ليرسم البسمة فوق شفاه أسرته الصغيرة التي يبارك زيادتها وكبرها، تجده الآن لا يقبل منها ما يعكّر مزاجه المتقلّب وصار قضاء حاجاتهم نوعاً من العبء يفعله بأسرع ما يمكن؛ ليتفرّغ لنفسه ومتعته تلك التي يظن أنها متعة!!!

«ما أحقر الحياة بهذا المنطق»!

قالتها نوف بزفرة عميقة تجترُّ وراءها كثيراً من الآهات ...؟

ذات يـوم بينما هي مبحرة عبر شطـآن الوحدة والأحزان إذا به يدخل المنــزل مرهقــاً كعادتــه، والساعة تشـير إلى الثانيــة بعد منتصــف الليل لتستقبلــه متعطرةً وهي تكظم حسراتهــا وآلامها... ولكن لم تجده ... نعم لم تجده بل وجدت إنسانا مرهقا يبحث عن فراشه فقط؛ لينام!

التفــت إليها ليخبرها بأنه ليس بحاجة إلى أي شيء فقد تناول العشاء مــع الرفاق، أحست نوف بأنه يشعــر بالاكتفاء التام ربما حتى من وجودها بجانبه وغط في نومٍ عميق يرافقه شخيرٌ عالٍ...

التجــأت إلى الله بكل أعضاء جسدها المنتفض ترجو له الهداية وتدعو لــه بَكَتْ وبكت حتى شعرت وكأنّ الضَبَــاب قد غطى عينيها لكثرة الدموع، فلم تعد ترى شيئاً..

حلَّ الصيفُ والتقى كعادته برفاقه، يتشاورون إلى أيّ دولة ستيوجهون، حتــى استقر رأيهم على واحدة، وبسرعة أحضِرت جوازات السفر وقُدمت وخُتمــت وقُطعــت التذاكر... وبينمــا هم في الطريق باتجــاه أحد المطاعم عرضوا عليه فكرة أن يكون العشاء عنده الليلة.

وَافق دون تردد !!

حل المساء واجتمعوا للعشاء..

غمز أحدهم رفيقه، وهو يشير إلى ما علا منضدة التلفاز..

إنه جواز سفر!.

عنــد خروجه لإحضار بقيــة أطباق الطعــام اختطفه أحدهــم وأخفاه وأخذوا يتضاحكون ويتضاحكون.

لا يعلمــون أنهم بفعلتهــم هذه سيحطمون أسرة كاملــة تسعى ربّتها أن تنقذها وتنقذ زوجها وتدعو الله راجيةً أن يهديه ويصلحه...

تناولــوا العشاء وغادروا، وكانت الرحلــة في الخامسة عصراً من اليوم الآتــي ونوف تــداري أوجاعها عــن صغارهــا وتختلق الأعــذار لتصرفات والدهــم وأسفاره الكثيرة التي بلا هدف؛ حتــى لا تنهار صورته الشامخة في ذاكرتهم الغضة!!

يحــين موعد السفر، فتشعر بأن روحها تكاد تسافر إلى البعيد المجهول في هذه الدنيا العجيبة!!

يدخــل عليها، وهي تحاول مسح الدمــوع التي استطاعت الخروج رغماً عنها إلى عالم الوجود الميت!!

سألها بعجلة قاسية: أين جواز سفري؟

ردت عليه بشيء من الذهول: بأنها لم تره مطلقاً!

جــن جنونه وقلب المنــزل رأساً على عقب ولم يجد له أثراً فزأر بوجهها وبوجه أطفاله الصغار، حتى ارتعدوا وبكوا.

صار كالذي يتخبطه الشيطان من المس لا يعلم ماذا يفعل؟ أين يبحث؟ إلى أن وصلهــا منه لطمةً قويــةً أسقطتها أرضاً، نهضــت مسرعة؛ لتقاوم تلــك الصفعات بيدهــا... واشتعل المنزل صراخاً ممزوجــاً بمرارة قاسية ترسم صورة للأسى في تلك الأنفس المحطمة!

خــرج كالمجنــون هائماً على وجهه لا يلوي على شــيء، وحاول الاتصال بزملاء الرحلة فلم يوفقّ!

انتصبت وتماسكت بما بقي فيها من قوة وبعجلة جمعت ملابس أطفالها وبعضاً من ملابسها وخرجت راحلة... هاربة إلى منزل عائلتها المكونة من والد كبير السن وشقيق وحيد متزوج، وله أطفال.

بَعْد عدة أشهر علم ذلك الزوج التائه أن زوجته في إحدى المصحات النفسية وأن أطفاله في حالة يرثى لها من الكآبة والحزن إلى جانب العراك المستمر مع أبناء خالهم، ورغم ذلك كله لم يعرهم اهتماما!!

وفي يوم.. رنَّ جرس الهاتف كان المتكلم أحد خاصة رفاقه المستهترين أخبره، وهو يضحك أنَّ جواز السفر بجوزتهم، وأخذ يتأسف لتلك المزحة الثقيلة.

صرخ بسماعة الهاتف، وهو يتخبّط ويتوعد ويحلف بأغلظ الأيمان بأنه سينتقم.

في هذه الأثناء تذكر أسرته، زوجته وأطفاله وكأنه استفاق من حالة إغماءٍ جعلته غير مدرك لما يحدث حوله.

هرع إلى أطفاله، محملاً بالهدايا والأغراض، محاولاً تصحيح بعض أخطائه وتهدئة الوضع، ولكن فات الأوان..

لأن زوجته الحنون لم تعد هي.. لقد انسلخت من عالمها وأصبحت تعيش عالماً آخر من الشتات وأبحرت بعيداً عنه..

لم يدر أن قدرتها على تحمّل الجراح محدودة.. إلى أن رآها تمرّ بحالة من الهياج والاضطراب لمجرد وجوده في منزل أخيها فهي لم تعد تطيقه، حتى رائحة عطره باتت تجدها نتنة مقززة، فقفل راجعاً وهو يتحسر على تلك الأيام..

وأقسم بأغلظ الأيمان أن ينتقم ممن حطموا أركان منزله!!

بقايا الأمس

أقبل الليل بنسماته الحالمة... بهدوئه المعهود، فعبر ماراً بطرقات المدينة الصغيرة. كانت البيوتات متقاربة... متراصّة وكأنها أخوة قد أخذت العهد على نفسها بألاتفترق !.

في كل بيت تسكن أجساد ... وأسرار ... وآلام.

في تلك اللحظات كان يهم بالدخول إلى منزله وفي قرارة نفسه خوف وتوجس مما سيسمعه منها بعد قليل... الأمل... أصل الحكاية التي لم تبدأ لتنتهي... هو ذلك المرام الذي طالما داعب مشاعرهما معاً؟.

دلف من باب الدار... فاستقبلته بمحياها المشرق ورائحة بخورها الفواح... ونسمات تسللت إلى أنفه مفعمة بعبير الهيل الممزوج بالزعفران.

كل ذلك كان كفيلاً بأن يلغي مشاعر فياضة بالحنين... الحنين إلى مناغاة طفلٍ يحبو.

سدَّ أذنيه عن صدًى لم يكن غيرَ صوت والده العجوز، وهو يلح عليه بذلك ويدعو له بالذرية الصالحة!!

جلست... وجلس بالمقابل... يتلفت محاولاً إشغال نفسه بأي شيء؛ حتى لا تصطدم نظراته بنظراتها، فيقرأ كل كلمة تحاول التعبير عما يكنه جوفها من أمنيات...

ولكن لا مناص، فقد بدأت بالكلام الذي سبقه قطرات من الدموع تسربت رغماً عنها !!.

لقد طرحت عليه فكرة الزواج بأخرى، وأنها التي ستخطب له ولن تغضب و و....

كانت هناك عبرات تتقطع بحلقها، وكأنها كومة من الأحجار الصلبة.

حيرة...ألم ... إحساس بالإحباط والعجز عن عمل أي شيء يربطنا بسلم الوصول إلى الهدف ... وقلب ... قلبٌ يرفض المكتوب ويرفض البعد عمن التصقت أرواحنا بهم، فيستحيل الانفصال!!.

لقد هاله منظر عينيها، وقد تحولت إلى شاطئ يسكنه الصمت فيثور فجأة؛ ليروي الأرض بمائه رغم ملوحتها وكثرة ما تحمله من الأسرار... والشوائب.

قالت له: أريد البسمة على وجهك وأنت تمسك بيده وتذهبان إلى المسجد... إلى المتجر... إلى أي مكان تشعر بالفخر به، وهو بجانبك.

إحساس مشبع بالخوف والندم... وأشياء أخرى... تعبث بكيانه وصوت يصرخ به: ألا تفعل ... ألا تفعل!.

تماسك وقال بكل ما استطاع أن يعبر به: لن أتزوج وسوف أرضى بما قدره الله لنا أفهمت؟!.

نهض مسرعاً إلى الخارج وهو يصارع أفكاراً شرسة تهجم على جوارحه وأعماقه كما يهجم المرض على الأجساد، فيبليها ألماً.

توالت الأيام ومضت سنوات وكثر همس الناس حوله ... وأتى من يقنعه بأن يجرب مرة أخرى ...

فقال لها: قيل لي: إن في أطراف المدينة منزلاً طينياً تسكنه عائلة فقيرة مكونة من أب وابنته المطلقة وجدتها العجوز، وقد اقترح علي أحدهم أن... أتقدم إلى هذه البنت، وأتزوجها لعل الله يحقق الأمل، وثقي بأنها بالنسبة لي أم ولدي فقط!!.

نهضت وأشاحت بوجهها عنه، وكأن كأساً من زجاج مملوء بماء حار صبَّ على رأسها ونزل إلى كبدها، لكنها استسلمت ولم تتفوه بكلمةٍ، بل اكتفت بإلقاء النظرة الأخيرة عبر ما صال وجال في أعماقها !!!.

وفعلا.. تمَّ كل شيء بسرعة وتزوج من تلك الفتاة ووجد ما كان يتمناه فحملت وأنجبت... وصار له أطفال وشيئاً فشيئاً بدأ يتسرب اليأس إلى قلبها الحزين...الإحساس بأنها «حرف» زائد من بين أحرف الحياة، فلم تستطيع التحمل وطلبت الانفصال، عندما شعرت بأن أطفاله قد أخذوا منه كل اهتمامه!.

دارت في نفسه عدة تساؤلات كان أبرزها العشرة... الحب... الحب الذي لا يمكن أن يتكرر أو ينتهي..

ولكن... تذكر أنه عاهدها منذ بداية لقائهما بألا يضغط على أعماقها، فيرفض لها طلباً أو رغبةً وإن كانت بالنسبة له الغرق... الألم... حتى الانصهار.

وافق على مضض، وهو يتأمل تقاطيع وجهها الحائرة ورفيف رموشها الغاضبة، وهي تحاول طرد القطرات الحارقة من الماء عن غابة عينيها التائهتين.

أمسك بيدها الباردة، وهو يبكي ويتمنى أن تتراجع عن قرار خطير كهذا... ولكن ...

قد نتحمّل جروحنا ونعيش وَخَزَاتها وقد نضع أناملنا على منابتها محاولين رتقها حتى لا تتسع؛ لكي نجاري الحياة ونحاول التأقلم مع ما تبقى لنا منها بصمت.

مرت أيامٌ وسنون ومازال يلوح له ظلها وهي تجر آلامها ممسكة بحقيبة ملابسها تخطو آخر الخطوات في منزله وبين ناظريه بتصميم وعزيمة.

تلونت الليالي في مخيلته وأيامه وهو ما زال يتنفس عبق عطرها الأصيل وطلتها البهية، محاولاً مقارنتها بأم أطفاله، ولكن...

لا يمكن... لم يشعر يوماً من الأيام، ولو بتشابه بسيط بينهما... فقد كل رومانسية كان يعيشها ويتمتع بأيامها !!.

كان له خمسةُ أطفال أكبرهم يبلغ من العمر عشرة أعوام وأصغرهم مازال وليداً عندما تخلّت عنه والدته بالرحيل بعد صراعٍ مرير مع المرض لم يمهلها أن تراه أو تبارك اسمه.

وكأن الأقدار بأمر مدبرها قد وضعت للحياة رسماً تفصيلياً !!.

بقي وحيداً يصارع الأوجاع في كل لحظة فيداهمه الخوف وما يكاد يصرخ حتى يسمع أنين طفله الرضيع، وكأنه علم يقيناً بأنه في العراء، بعيداً عن حضن دافئ يشعره بالأمان و يشبعه رائحة الحنان، فينام قرير العين.

يحمل طفله وفي صدره حشرجة ثقيلة وطرق باباً من الخشب عن يمينه ويسـاره حوضان من أحواض الريحان الـذي كثيراً ما كانت تهتم بزراعته ونشره في زوايا البهو...

ولكن ... غزا قلبه رجفة فنشف حلقه ابتلع ريقه بصعوبة بالغة... ليس هناك بوادر للحياة، فالأغصان يابسة والأوراق صفراء، إنه نذير شؤم!!.

أطرق بشدّة فسمع صوت هزيل بالداخل ما لبث أن اقترب وفتح ليفاجئه ظـل شبح لزوجتـه... التي شهقت ثم سقطـت وكأن الله استجاب لها، فقد كانت السقطة الأخيرة وكان لها أمل وأمنية بأن يكون هو آخر من تراه.

تتابعـت أسئلـة كثيرة عـبر خطوط وجهـه الأسمر، ولكـن لم يجد لها جواباً، بلع الألم وعاد إلى منزله يجر الخُطى بروح هاوية وأنفاس متقطعة يحمـل مسؤولية خمسة أرواح بريئة ترقبه بصمت... وانكسار وكأنها تقرأ ما يدور في مخيلته من خلال حركاته اللاشعورية وتعبيراته الانفعالية بين الحين والآخر.

حملهم مـع همومه، وانزوى بأحد أركان منزلـه القديم، وهو يعيش ما تبقـى لـه من خـلال أحلام اليقظـة، فيكلمها ويدنـو من أماكـن جلوسها ويحتسي القهوة ويتسامر ويحلم.

ولكن ... مع خيالها.

شواطئ من الدموع

وقفت، وهي تداري دموعاً مندفعة، حاولت الخروج إلى أرض الواقع؛ لتعلن للملأ حالات الظلم والاستبداد التي كانت تتعرض لها كل يوم! كانت حياتها أشبه بالحلم... رفاهية... حنان... دفء يشع في أركان المنزل الكبير!!

... فاطمة هي آخر القطاف الذي أثمر بعد لقاء اثنين تعاهدا على الإخلاص والحب وبذلا الكثير لحياة طيبة مطمئنة تحمي مراحل عديدة ابتداء من الطفولة إلى الصبا إلى مرحلة هي من أصعب المراحل التي يمر بها الأبناء... مرحلة المراهقة...!.

ولكن.. لم تمهلها الأيام لتتذوق حلاوتها بجانبهما، فقد حلّ قضاء الله وانتقل والدها ووالدتها إلى دار الخلود مُعْلَنين بذلك أروع صور الوفاء بالعهد والإصرار على الرفقة دون افتراق...

فقد رحلا في حادث مروري مفاجئ!

وهذه الحياة نسير فيها لاهثين... باحثين عن بصيص لأمل...

عن واقع لحلم جميل نحاول تحقيقه، ولا نعرف هل سنصل يوماً إليه أم سيتوقف في محطة من محطات العمر بتوقف نبضات قلوبنا المتعبة!!.

حاولت مجاراة الأمور والسير في طرقاتها المتعرجة...

ولكن لم تدعها ألوان الشقاء بل لازمتها كظلها.

فقد استقر بها المقام عند أخيها الأكبر وزوجته...!!!

إلا أن الأخيرة لم يرق لها ذلك فحاولت التنغيص عليها قدر المستطاع؛ لأنها أحست بأن هناك من سرق منها اهتمام زوجها بها...

أما أولادها فصاروا كالملائكة بعد أن كانت تشتكي من ضجيجهم ومشاكساتهم وكأن مجيئها فرحة كبرى... عيد أشرقت شمسه واغتبط الصغار بقدومه!!! كانت لا تنام حتى تنهي جميع شؤون المنزل...

فزوجة أخيها اختلقت مشكلة مع الخادمة وأصرت على ترحيلها. ومع ذلك لا يعجبها لها أي عمل تقوم به «فاطمة»!. حتى أتى يوم وأصدرت قراراً بعدم إتمام تعليمها! رغم أنها طالبة جامعية مهذبة هادئة خلوقة ودائماً ما كانت تترقرق في عينيها دموع... في كل سكنة من سكنات روحها... في كل مرة تبحر بها إلى البعيد القريب من أحداث حياتها !.

بكت... أروت وسائدها دموعاً غزيرة...

حتى أستاذة المادة عنفتها عند حصولها على درجة ضئيلة... لم تمهلها... لم تبحرْ عبر شواطئ عينيها الحوراوين فتصطاد منها ما يؤرقها... لم تسأل مجدافيها عما كان يربض عليهما فيعيق تحرك المركب...

بل اكتفت بالتأنيب ولفت نظرها «بإنذار» وصمتت وكأنها بذلك أتمت واجبها ولم تعلم أنها عملت على إسقاط أروع الأحاسيس في أعماقها...

لم تعلم أنها كانت مِعْوَل هَدْمٍ لكل بقايا أمل لنجاح أمانيها!!.

أسبــوعٌ كامل... لم تدعها زوجة أخيها تذهبُ إلى ذلك المتَّنفس الوحيد لأوجاعها وضم ما تلاقيه في معترك ساحته إلى تهميشها في المنزل ...

حتى أضربت عن الطعام وهزلت!.

كان مجــيء خالها «عبد العزيز» منقذاً لها، وكأنــه أحس بشيءٍ يختلج كيانهــا... لقــد لاحظ ذهولها وهــي تصب القهوة في الفنجــان حتى فاض وتناثرت قطراتها حول أناملها.

لقد سمع صوت أنين مكتوم بالكاد يتسرب إلى مسامعه ولكنه أنين مذبوح! استفسر عن عدم ذهابها للجامعة (وعرف السبب)!!.

حــاول إقنــاع أخيها بضمهــا إلى بناته فرفض، فتوصــل خالها إلى حل آخر ينتشلها من براثن الأحزان، وهو «السكن الجامعي» فوافق أخوها بعد تردد.

كان ذلك القرار بالنسبة لها بوابة الفرج من تلك القيود.

تقاسمــت وصديقة لها إحــدى غرف السكن وراحت تبحــر عبر أمواج عينيها فيروعها ذلــك الموج الهائج الذي فاض حتى تعدى جزيرة أهدابها الكثيفة... اقتربــت منها... تلمست أوجاعها فكانــت نفسها المذبوحة تئن بصمت ... تثور بأوجاع داخلية لا يشعر بها من حولها.

فقط هي من تعاني الآلام بذهول.

تحدثــت فاطمــة إلى صديقتها تلــك، وكأنها داست جراحــاتٍ عميقة، ففجرت أوراماً من الكدر وبدأت تنزف.

صار عند فاطمة قناعات كثيرة بأن خلف الأسوار كرامات مذبوحة!.

انطلقت نظراتها صوب الأفق...

صوب لاشيء، وراحت تسبح بملكوت آلامها.

المقص الأسود

كان متعجرفاً... كل ما يهمه ذاته... وذاته فقط !!

كان منزله أقرب إلى معتقل وحشي يُمارس فيه جميع أنواع التعذيب من جرحٍ لمشاعر... وإسقاط لكرامات... واستحقار فظيع يسوط به إحساسها المرهف الصابر لأجل حبات القلب!

كانـت تعد دخوله المنزل نوعـاً من العاصفة الرمليـة الساخنة المحملة بأثقالٍ من الغبار!

فتتماسك إلى أن ينام أو يخرج من المنزل لوجهةٍ لا تعلمها.

حتى أتى ذلك اليوم الذي تحللت فيه من قيوده برغبته هو.

ولكـن لا يزال في عنقها قيدان جميلان قد غرسـا في قلبها المسكين... إنهما ابنها وابنتها اللذان لا يعلمان ما تعانيه لأجلهما... ورحلت!

تركتهـا وحدها علـى أعتاب المراهقـة... جميلة... شامخـة... تمتلك شعراً غزيراً جذاباً فاحم السواد.

ومـا هـي إلا عدة أسابيـع... إلا وزوجتـه الجديدة من تلـك البلاد قد احتلت غرفة والدتها المسكينة !!

كانـت تلـك الزوجـة المشدوهـة... المنبهـرة بجمال هـذه الصبية يراودها خاطر!!

فما كان منها أن أمسكت «المقص» وقصت لها شعرها المسترسل بحجة الموضة! بكت حتى روت وسائدها دموعاً من القهر...

لقد سلبت منها ما يخصها وحدها هي فقط !

لاحت لها صورة والدتها الحبيبة ذات (الملامح) الهادئة... والبشرة الصافية دون اصطناع والتي تعكس حقيقة قلبها الناصع، وهي تعتني بشعرها الجميل.

تذكرت حين كانت تمسك به تسرحه وتضع عليه «الحناء» وتغسله!!.

كل ذلك ذهب سُدى... كل ذلك تبخر... تعب الأيام والسنين القصيرة في عمرها الغض تلاشى منذ أن لامس المقص خصلات شعرها بيد زوجة أبيها «إلهام».

كل تلك الأحداث كانت ترسم على صفحات محياها خريطة كبيرة من الهموم عبثت بنظراتها المنطلقة صوب لا شيء في هذه الدنيا الصغيرة!!

لاحظت المشرفة الاجتماعية ذلك التبدل الذي طرأ على تصرفاتها... استدعتها...

سألتها بطريقة أخرى لم تعهدها من قبل... أحست أنها حصلت على جميع المعلومات منها دون شعورها!!

بكت ورجتها بألا تتدخل... أقسمت لها بأن والدها سيحرمها من الحضور، سيبعدها عن العالم الذي أحبته وكان الملاذ الوحيد لها بعد الله لهمومها... لأوجاعها...

أقسمت لها بأنها لن تراها إن هي اتصلت وحاولت محادثته في كل تلك الأشكال!.

لم تصدقها وظنت أنها قارب النجاة وهي لا تعلم أنها تغرقها... تلغي وجودها بين زميلاتها...

صار مكانها خاوياً... لم تجرؤ إحداهن على احتلاله... تقديراً لها ...

تعاطفاً معها !!!

وذات يوم دخلت المشرفة تسأل عنها... قالوا لها غائبة!

فانتظرت لغد... وأتاها الرد نفسه!!

توالت الأيام وقارب العام الدراسي على الانتهاء وأحست بفداحة الخطأ الذي ارتكبته... تذكرت عينيها الطفوليتين وهي تفيض بالدموع وعبارات الرجاء بألا تتصرف تتردد بأسماعها... علمت أن مهنتها يجب أن تكون أوسع إدراكاً من ذلك وأن لكل تصرف حساباً... أحست بأن «نوف» شيء آخر.. معنى عميق مازال طيلة تلك السنوات يعبث... يلهو كطفل يتيم خائف.. جائع في أعماقها، يؤنبها في كل دقيقة حتى في أحلامها مما جعلها تعيش مكتئبة حزينة، كل الأيام في حياتها مزيج من الندم.. والهم.. والرغبة في البكاء... البكاء بصوت عالٍ!

البكاء بصمت ...!

كانت الحياة تسير بذلك الزورق وسط بحرٍ هادئ وأمواج زرقاء صافية تهفو لها النفس المطمئنة...

ولكن... فجأة ومن غير ميعاد تلاطمت تلك الأمواج معلنةً الحرب على ذلك الزورق !!

ومع غضب البحر الهادر ! انقلب وقذف بحمولته في قاع البِحار وصار عصفاً مأكولًا!

نجا من نجا وتحطم من تحطم .. ومن حاول النجاة شق طريقه عبر الأمواج حتى وصل البر... وسار حتى استقر..!

مرت الشهور بعد هذه الحادثة، وكأن بعضا من الأمان بدأ يتسرب إلى جزء من النفوس المحطمة!!

لم تكن أكبر الحصاد، ولكنها تحملته... كانت قد استحوذت على قلب والديها وبعض أسرتها.

لم تكره أحداً في يوم من الأيام.. كانت تفيض بالأحاسيس المرهفة..

فتعمل بوجدانها ما لم تعمله جميع الأساليب للجروح !

وفي مدرستها كانت أشبه ما تكون بكومة من المشاعر قد تجمعت؛ لتنشر الود والوفاء بين القلوب...

وللأسف لقد صدمتها عدة مواقف لم تكن تتوقعها أبدا...

حاولت تحليلها... تبريرها... والاقتراب من أصحابها... جاهدت بالتعبير عما يكنه قلبها ورفض هذا الأسلوب دون جروح ...

ولكن قوبلت بزمجرة غليظة تفضح ما عملت بعض الأنفس في أعماق تلك الصحبة...

وذات يوم انفرجت أسارير الشمس؛ لتخبرها عن حدثٍ جديد يقترب من حياتها... شابٌ حكيم ذو أخلاق عالية وقلبٍ رقيق.

رحلت معهُ يشق طريقه بجانبها عبر ملامح متفائلة بحياةٍ سعيدة ومستقبل محفوف بالإيمان...

مرت الأيام.. أنجبت.. بكت.. تلفتت.. لم تنقذها تلك التساؤلات التي لاحت من خلال نظراتها بكى طفلها.. ضمته بخوف.. هُناك آلام لم تعهدها... مشارط الأطباء قد عملت على رسم خريطة كبيرة على جدار بطنها... تلك هي ضريبة الأمومة!!

تبسمت و أحست بحجم المسؤولية من خلال هذا الجسم الضئيل الذي ينبض.. شعرت أنه بيضة يجب الحرص عليها؛ كي لا تنخدش، تذكرت الممرضة عندما سألتها قبل الولادة بلحظات وقد أرعبتها تلك الحركة المضطربة في الغرفة، فهناك وضع غير طبيعي...

عملية؟!.. حاولت طرد الخوف الذي بدأ يتسرب إلى أعماقها، فسألت متى أرى الطفل؟... قالت لها: أنت طفل...

حاولـت من خلال هذه المدة العصيبة الصبر وتحمل المسؤولية الكبيرة وحدها، وشعرت أنها يتيمة وهما على قيد الحياة، وتذكرت أن هناك عوائق استولت على خطواتهما إليها... عزت نفسها بذلك واستسلمت...

الجـرح يؤلمهـا.. والطفـل يبكي، وهُنـاك مسؤوليـات جسيمـة تبحلق بأعماقها!.

كم تمنت أن يكون وضعها كباقي البنات.. ذهبت لزيارة منزلهم! قلَّبت تلك الخطوط التي ارتسمت على الوجوه.. تحاول فك طلاسمها لم تستطع !!

كان والدهـا ذا ملامـح إيمانيـة شديـدة تكسو محياه تلـك الشعيرات البيضـاء وقد تحـول في نظرها قمراً يشع رحمة ونـوراً... أما والدتها فقد كانـت تجاهد لحظـات الفزع التي تتملـك كيانها بالانفجـار بوجهها كلما رأتهـا... لم تكـن قاسيـة بل على العكس مـن ذلك... لهـا مكانة في قلوب الجميع طيبة، ولكن!..

هنـاك قوة قهرية قـد هبطت بروحها فتملكتها وقـد ألغت ألوان الفرح والطمأنينـة في فؤادهـا وأمام ناظريها إلى رعـودٍ مزمجرة ترسل شغفات الخوف لقلبها... حتى ارتعدت... وابتعدت...

توالت الأعوام وكـبرت المسؤوليات... واتخذت لهـا طريقاً على الرغم من مرارته حاولت أن تتقبله وتقتنع به..

حاولت الاتصـال.. فصدمت.. صارت كمن أفاق فجأة من حلمٍ مزعج أو غيبوبة ونهض مسرعاً، يتخبط لا يعرف إلى أين سيمضي؟

كبرت الجفوة.. ورحلت الجدة التي طالما عذبتها أحاسيس الابتعاد..

فقد كانت تقاسمها الغرفة قبل رحيلها إلى منزلها، وحتى العبادات كانت تشعل فتيل الحماس بوجدانها للتسابق على أداء النوافل.

غزا قلبها نوع من الشجن العميق وبكت... بكت ولم تتوقع أن دموعها ستجف يوماً، وكأنها قد عرفت ما اعتمل بكيان جدتها الحنون من مشاعر الرفض لهذا الوضع الأليم..

فهربت أولا بذاكرتها، حيث أذهلت كل ما حولها ثم اختتمت ذلك بالرحيل! وفي ذلك اليوم الذي كان يجلس فيه والدها على حافة القبر لم يكن يدور في خلده، وهو ينظر إلى جسدها الضئيل وهم يوارونهُ الثرى وعيناه تنزفان لما فيه من لوعة وحسرة أنه لم يبقَ من عمره سوى واحد وعشرين يوماً فقط ويلحق بها، حيث أفاق صباح يوم الجمعة ولبس ثوبه الأبيض وغترته البيضاء وتوكأ على عصاه القديمة الصلبة، ذاهباً إلى المسجد...

كان الإمام يمشي وراءه، وهو يتعجب لهذا الشيخ من مسابقته له للمسجد... لم يمنعه ضعفه من هذه المسابقة الجليلة...

وفي خضم هذه الأفكار التي راودت الإمام إذا بالشيخ يهوي على عتبة المسجد... فسارع لنجدته وحمله وأراد إيصاله إلى منزله، فما كان منه إلا أن أشار بيده صوب المنبر وهمس: إلى هناك!!

استند على أحد الأعمدة الموجودة هناك وأخذ يؤذّن بكل ما بقي فيه من قوة ونفسٍ متقطع، وما إن انتهى حتى تشهد وكبر ولفظ أنفاسه الطاهرة

ففاضت روحه وكأنه طائر أبيض يحوم حول المئذنة عندما صدح صوت المؤذن بالأذان وروحه تسابق العبارات العظيمة إلى السماء..

جلست القرفصاء في ترقب وفزع.. ولآخر مرة ضغطت على بقايا الكرامة في كيانها.. تنازلت و أسرعت الخطى نحو ما تبقى لها من فرع.. حاولت احتضانها.. ولكنها استقبلتها بعتب واستنفار ونزلت عليها تلك الكلمات كالبحر المسموم... تحملت ومازال الطريق إلى قلب والدتها صعباً تحفه المهالك والمتاهات !!

بقي شيء واحد كان لها بمنزلة الشمعة المضيئة وسط ليل دامس هي تلك الزهرة المرحة والديمة الحائرة في خِضم الأحداث.. «هي شقيقتها الصغرى» فهي بمنزلة نسمة عذبة ترمم الآهات الحائرة لأنفاسها المتعبة فتكون بلسماً للجروح ومتنفساً للكدر في حياتها... بل ومعنى لبقايا الانتماء في عالمها المتضارب !!

وتدور الأيام، وهي على أمل بلقاء تلك الشقيقة الطيبة... إذ هي كالأرض العطشى لرشقات مطر تترقب اللقاء... إلى أن تناهى إلى مسامعها أغلى خبر ظنت أنه نهاية المطاف مع عذاب حرمان رؤيتها، فلقد علمت بقرب زفافها وفرحت ورأت الدنيا أمام ناظرها ملونة بألوان جميلة تبعث في أوصالها نعمة الإحساس بالفرح...ولكن!

في لحظات، وعندما نصطدم بأحداث مؤلمة تكاد تنتزع ما بقي من أوتار قلوبنا، فإن كل شيء بات لا قيمة له..

فقد أحست بأن حضورها لحفل الزفاف سيكون على حساب أنفاس أخرى لا ترغب ذلك، وربما ينتهي كل شيء.. كل شيء بالنسبة لعالم شقيقتها السعيد.

صمتت متخذة لنفسها سياجاً منيعاً من جميع مَنْ حولها من أشخاص واكتفت بباقة جميلة ملونة غلب على ألوانها اللون الأحمر؛ ليعبر عما يعتمل في قلبها لها من أمنيات بالتوفيق، وكتبت لها إهداءً، وبعثت بها إلى الفندق في تلك الليلة...

صار لروحها سكنات تحب أن تبحر من خلالها؛ لتتلمس وجودها عبر اتجاهات الرياح... مرت أمام مخيلتها صور كثيرة فرأت جدتها وسمعت همسها بتسبيحات السحر عند التهجد... تراءت لها صورة والدها بخطواته الثقيلة إلى المسجد وتسرب إلى مسامعها بسملته الحانية...

قابلت جميع البشر وتأملت الشجر، وحتى حبات المطر، واستنشقت رائحة نداها مبتسمة، ولكن في داخل أعماقها شيء يحترق وقلب تقطعت نياطه ودموع... وبكاء... لكن بصمت!!.

صرخة ألم!!

اصطنعت النعاس، تثاءبت محاولة إقناع نفسها بأنها ترغب في النوم...

الهروب من الواقع المرير لحياتها التعيسة؟!!.

فهاهـي الساعة الثالثة فجـراً، وقد اختتمت سهرتها مـع الورق وزوايا الأركان، واسترجعت الماضي... الماضي ربما القريب نوعاً ما من حريتها... مـن آمالها وأحلامها الوردية التي طالما رسمتها بإتقان لحياتها المستقبلية مع رفيق درب يقاسمها الطريق وما يعترضها من مفاجآت، ولكن...!.

كم نعاني عندما نصطدم بالواقع المعارض لأحلامنا...

كم نعيش لحظات شرود عندما تتكوم أوجاعنا في حلوقنا وكأنها أحجار صلبة لا تلين أو تصمت، فهو ذا ما يُسمى خيبة الآمال التي تربعت يوماً ما في مخيلتنا.

قد نتأمـل حياتنا وأمانينا في جو من الاستقرار النفسي ومحاولة الفوز بفرص الحياة، فنصطدم بواقع آخر مرير من السلبيات التي تمحو كل ما تخيلناه !.

انتصبـت واقفةً، عندما قطع عليها تأملاتهـا صوتُ خطوات أدارت بقايـا جسدهـا المتهالـك، ليفاجئها ظلـه وهـو في حالة مـن الإرهـاق يتـخبط، يبحث...

بالطبـع لا يبحث عنها، بل عـن باقي الوسائد ليهـوي... وكأنه مخلوق بشـع لم يعرهـا اهتماما! التفـت إليها وهو مسبل الأجفـان، وقال: لماذا لم تنامي هل تعانين من شيء؟

وقعـت هـذه الكلمات علـى مسامعهـا كأنهـا صاعقة وخالجهـا شعور بالاستفراغ... والهروب بصرخات متقطعة، وهي لا تحتمل الاستمرار.

تذكـرت «منى» صديقتها عندما قالت لها: زففـت إليه لم أعط لنفسي فرصة للتفكير بأي عوائق واعتبرت بأن الرجل بأخلاقه ورجولته وشهامته، فكم من زوجة دفعت بيد زوجها إلى سلم السعادة والنجاح، لكنه شيء آخر مـن الفوضى وعدم المبـالاة بأمور مهمة كثيرة برغـم أني رضيت بالحياة معه ومع أسرته المتواضعة.

ولكـن لو أنني كرهت شخصاً في حياتي يومـاً ما لكرهته ثم كرهته؛ لأنه لا يستحق دمعة واحدة من عيني اللتين تابعته بحب صادق منذ أول يوم لزواجنا التعيس، لقد أخلصت له وتحملته وتحملت الكثيـر... الكثير مـن تصرفاته الهوجاء تجاهـي، حتى طفلي ذو الأربـع سنوات يثور في وجهـه لأتفه الأسباب، لقد بدا لي مجرد ورقة وليس طفلاً، فهو يرتجف عندما يسمع صوته ويحاول الانشغال بأي شيء؛ حتى لا يلاحظه فيصرخ في وجهه!

لقـد خالجني شعور محبـط بالقهر؛ لأنني سمعـت تحذيراته لي بعدم الاقتراب منه حين يؤنبه بسبب ودون سبب!

ليتني ضممته إلى صدري ليتني أشبعته رائحة الحنان وغمرته بالأمان.

أي حيـاة تلك التـي نعيشها يا صديقتـي... يقولون: إننـا متغطرسات عندمـا نرفض الارتباط بأشخاص نشعر بأننا غير قـادرات على التأقلم معهـم، وعندما يتـم كل شيء ونرضـى بقدرنا نجد بعضهـم يثور بداخله هـذا الهاجس الذي لم نحاول يوماً أن نشعرهم به، ولكنهم يحاولون إهانة أحاسيسنا... وتهميشنا بتصرفات تخلو من الرحمة والتقدير، فنجد أنهم يترجمونها بالتسلط، وكأنهم يحسبون أن ذلك هو القوامة !!

ونحـن نمضي في هذا العالم الغريب ... نجر آلامنا وأسرارنا بصمت دون أن نجرؤ على التفكير بالتوقف؛ خوفاً من نظرة ذلك المجتمع المحدود الأفق، وخوفاً من أن يشار إلينا على أننا نحن الخاطئات فقط !!

ألا تعلمـين يـا (أماني) أن منزلنا بالنسبة لـه كان مجرد فندق يأتي إليه عندما يستنفد جميع طاقاته وأوقات مرحه ومواعيده الخاصة التي لا أعلـم عنها شيئاً، ولو حاولـت التخاطب معه قلبها إلى حربٍ ضروس؛ لأننـي اقتحمت عليه خصوصيـات من الجرم أن أعرفهـا، أتـذكر أمي -رحمها الله- وهي توصيني في ليلة زفافي بألا أقفل على قلبي أية أسرار عنه فنحن الآن روح واحدة يجب أن يعلم كُلٌّ منا جميع أحاسيس الآخر.. وتأملاتـه.. وأمنياته، فقد بني الزواج على المحبة والرحمة اللتين تحدث عنهما القرآن الكريم.

خرجـت من الغرفـة بعدما بدأ خيـال «منى» يتلاشى مـن أمامها لقد أحسـت أنها تختنق، وفجأة اصطدمت بقسمـات عتيقة، فحاولت فك تلك الخطوط التي ارتسمت عليها، فلم تستطع!

شـــيء واحد فقــط قرأته بوضوح عندمــا شعرت بأنهــا السبب في حالة زوجهــا المدلل، فقد وفرت له كل شيء تمناه، لم تحمله مسؤولية.. وخالجها إحساس بأنها هي أيضاً دمية جميلة اختطفتها من محل راق للألعاب وقدّمت لــه؛ ليلهو بها بعد أن حاول تفكيك أجزائهــا واستخراج أشياء يكرهها فيها هــي مشاعرها... كينونتها... أعصابها، لكنــه لم يستطع فحاول بالصراخ واللعن والوعيد حتى تبادر إلى رأسه فكرة لم يتأخر في تنفيذها.

لقد استفزهــا بشتى الطرق... أوحى لها بلهوه بألعاب كثيرة مثيلاتها، ولكن دون الذي كرهه بها!

أزكمت أنفها رائحة الخيانة، حتى تراءت لها صورة والدها وكأن وجهه قمــرٌ أبيض قد زينت جنباتــه تلك الشعــيرات فصار شعاعــاً ينشر النور حولها.

كانت تلــك اللحظة كفيلة بأن تطفئ فتيل القهــر في أعماقها، فأحست بسكينة روحية أبحرت معها لا تعرف إلى أين ...

كم تمنت أن ترجع الأيام؛ لتقول: لا... لا... لا أريده؛ لأنّ بيننا فوارق.. فوارق كثيرة، لكنها عادت وقد صممت على التوقف!

كرامات مطعونة!!!

بدت المرأة أمام ناظريهـا مجرد أمواج متلاطمة تعكسها أحاسيس قد جاشت من أعماق وجدانها المطعونة، كحمامة جريحة تبحث لها عن ملاذ من تلك الأوجاع !!!

عاشـت معه قساوة الحيـاة وذاقت شظف العيش، كانـت له ظله الذي لا يتـوارى... وأتى يـوم... أسقط فيه أحلى الأمـاني في حياتها... اجترت آهاتهـا وكأنهـا سيف قـد سُلّ الآن من القلـب بعد أن انشطـر نصفين... نصفٌ يخصها والآخر، فليرحل.. يبتعد عن جوفها، فلم تعد تتحمل وجوده ساكناً حنايا جسدها الهزيل.

دوت صرخـة حـرة مندفعة من ذلك الرسم الخـاوي الذي احتل جزءاً مـن السرير... فهمـت الممرضة مغزاها... فغرزت إبـرة في وريدها حتى غـاب وعيها عـن الوجود حولهـا، سقطت كما تسقط نخلـة خاوية وسط صحراءٍ قاحلة، فهربت بذاكرتها إلى البعيد... البعيد.

لم تكـن تتصـور أن يحدث ذلـك... لقد أحبته وذللـت جميع الصعاب لأجـل راحته وكانت حصيلة تلك الرحلة ثلاث براءات... كم كانت تحلم.. كـم كانـت تتخيل ذلك الجـو الضبابي الحـاني يرافقهـا وترافقه فتتملك

أعماقها نشوة وإحساس مشبع بالشموخ؛ لترتسم صورة جبال «الألب» في ذاكرتها، فترى أنها تعادلها طولاً وارتفاعاً.

كانت تحدث نفسها عندما تجتمع بشقيقاتها، وهن يحكين عن تلك الرحلات والذكريات بأنها حتماً ستحكي لهن يوماً ما كذلك، ولكن! لم يتحمل أن تتحدث في تلك الموضوعات بحجة ضيق ذات اليد وكانت تعتقد أن رحلاته فردية.

صبرت واحتسبت... كانت تجهز له حقيبة سفره مهانة الأحاسيس ملغاة الكرامة ولم تكن تعلم أن هناك حقيبة لامرأة أخرى تنتظره عند باب شقتها هي حصيلة تشجيع زملاء الفضائيات في سهراته !!

كان يرحل كعادته في كل مرة مصطحبا زوجة ثانية وعالما آخر وكأن مهمتها هي إعداد سعادته وراحته هو فقط !!

زارتها إحدى الصديقات في آخر رحلة له، وقد وصلت للتو من إحدى الدول الأوروبية لتزف لها خبر زواجه من أخرى منذ عدة سنوات وسعادته معها في تلك الرحلات على مرأى منها في كل رحلة يسافرها !!.

لم تصدق... لا تريد أن تسمح للكلمات الجارحة أن تمر عبر مسامعها...

بكت... واجهته... لم ينكر...

عاتبته بكلمات قليلة، وغابت هربت بذاكرتها عن عالمه الجاحد.

أنفاس لا تعود...

كان الكل فرحاً...

الكل تسري في أعماقه نشوة إيمانية عظيمة، فالليلة أولى ليالي رمضان..

فالنفس البشرية حالها كحال سائر مخلوقات الله، إلا أن طهارتها وطيب ريحها تكون بالعبادة الخالصة لله وحده، وأداء كل ما هو مفروض عليها، وتكون هذه النفس المخلوق المتكامل الذي زوده الله بالعقل الذي هو محور التفكير ودليل البصائر، وتكون تلك النفس بذلك العقل باقة فواحة حسنة المظهر نيرة القسمات حلوة التعبير.. بل إن كل ما يخرج عبر رسمها يكون راحة للقلوب التعبة والأنفاس الثائرة المترددة..

كانت القسمات في تلك الليلة تتلون بالراحة والبشر بمناسبة حلول الشهر مع رجاء عميق بأن يكون الشهر كاملاً من نصيبها..

إلا هي!، فقد كانت متوسطة الطول.. بيضاء ناعمة القسمات يكسوها شعر فاحم السواد قد حل محل الوشاح، فستر قامتها..

كل شيء في حياتها لهو.. تسلية ما تتردد أن تهمل تلك التسلية أو تتنازل عنها لمن يطلبها.. شيء واحد فقط هو ما أدخل البهجة على قلبها..

إنها مفكرة المواعيد الخاصة بأحدث المسلسلات والأفلام الأجنبية.. في ذلك الشهر..

اتخـذت خطـة رسمتها بإتقـان تتلخص في النـوم نهـاراً والاستيقاظ قبيـل أذان المغرب؛ لتتناول الإفطار، ومن ثم تستلم «الريموت» وتتنقل بين القنوات ببراعة...

اقـترب العيـد.. لم يتبقَّ عليه سـوى أيام معدودة، صممـت على زيارة الأسواق بعد أن بقي عشرة أيام على رحيل هذا الزائر الغالي.

كانت والدتها مرهقة... تعبة... تدعو لها بالهداية!!

وفي ذات يوم من هذه الأيام العشرة اقتنت ما اختارته من أحد المحلات المعروفـة التـي تربع على كل جزء من أجزائه ماركـة عالمية لذلك المصمم الأوروبي.. وقفلت عائدة إلى المنزل.

وضعـت ثوبـا بالخزانة.. وآخر لـدى المشغل، ثم هرولـت نحو الهاتف وهي منتشية، فـأدارت قرصه لحظة وعلا صوت قهقهات... كانت تحادث صديقتهـا التي دائماً ما كانت تحاول دعوتهـا إلى الله والأجواء الإيمانية، فقالـت: لا تتعبـي نفسك، فما زلـت في عمر الزهور والمـوت لا يقطف غير الزهور الذابلة !!

حوقلت صديقتها بحسرة وهي تدعو لها بالهداية ووضعت السماعة. وفي ذلـك الصباح كانت عقارب الساعة التي احتلـت مكاناً بارزاً في الصالون تشـير إلى التاسعة صباحاً... استيقظت الأم على وجل، وهي لم تنسَ طلب «ريم» في إيقاظهـا في هذا الوقـت؛ لتستعد للذهاب إلى المشغل لعمل بعض التعديلات على فستانها وتبعاته.

مـا إن دخلت والدتهـا إلى غرفتها حتى علا صراخهـا وهي تستنجد بمن في المنزل...

فـريم باردة الأطراف يعلـو قسماتها الرقيقة اكفهـرار... وكأن خبيرة التجميل قد تفننت في طليها بطبقة كثيفة من السمرة الشديدة...

هـب الجميـع إلى غرفتهـا، وهم مذهولـون وحاولوا مناداتهـا أو حتى الإطبـاق علـى أناملها البـاردة إلا أن... ملـك الموت كان أسـرع إليها من غـيره... فرحلت تاركة وراءها حسرة والدتهـا.. وفساتينها ذات الماركات العالمية.. ومواعيدها.

رحلـت ريم وهي تحمل ثمانية عشر ربيعـاً، وللأسف لم تكن مبتسمة.. ولم تعد قسماتها صباحية إنما احتلتها من كل جانب علامات الذبول...

دعوني ألتقط أوراقي

لم يكن مهند ذو الأحد عشر ربيعاً يجهل معنى ما تسرب إلى أذنيه من كلمات أنهت الجدال بين والده ووالدته وسكنت أصواتهما بعدها، فاحتل كل منهما زاوية من زوايا الصالون الفاره.

كان له منزل هادئ وأب طيب وأم حنون وأخوة ولم يعكر صفو الحياة شيء، إلا أنه ذات يوم استيقظ على جلبة قوية من الصراخ وكانت المرة الأولى التي يسمع فيها والديه وهما يتخاصمان بصوت عالٍ يشوبه التحدي وكان ذلك بداية لسلسلة من الجحيم فانقلب ذلك البيت الهادي إلى نار مستعرة.

حاول أن يبكي فلم يستطع، حمل شقيقه الأصغر ولزم غرفته محاولاً تنويمه.. فنام الصغير وخلد بجانبه عبر بوابة الأحلام المليئة بالوحوش والمكائد ومصيدة كبيرة أطبقت عليه وعلى شقيقه!!

وذات يوم وجد نفسه أمام وجهٍ جديد ترتسم عبر ملامحه علامات الغضب والنفور، حاول التأقلم، ضغط على ما تبقى لديه من أعصاب، كان المنزل أشبه ما يكون بمعتقل صارم... بمصنع يملؤه الضجيج حتى يحضر والده.. فإذا حضر سكنت حركة الجميع... حتى هي تلبس القناع الأبيض المبتسم المشرق، وكأنها أخرى غير التي كانت قبل قليل..

لقد فتح عينيه ذات صباح على وجه أبيه وهو يوقظه طالباً منه أن يشاركه هو وخالته الإفطار... (والمدرسة)..؟ قالها مهند بفزع؛ لأن والده لا يتناول إفطاره قبل الثامنة وهو قد قطع العهد على نفسه بأن يصل ويستقل بعد أن يتسلح بالعلم ليصل إلى الهدف...

لكنه عمل ما طلبه والده منه وجلس ليستمع.. قال له والده: لقد كبرت يا مهند، وقد قررت إعطاءك السيارة، بشرط أن تكون رهن إشارة خالتك وأطفالها في أي مشوار يطلب منك!.

أغمض عينيه ثم فتحهما وكأنه عرف القصد.. فحدث نفسه: وليكن... لا يضر، فهي فرصة للذهاب إلى والدتي والاطمئنان عليها، ومضت الأيام ومهند سائق العائلة..

وبدأ يتسرب من المدرسة ويهمل ويتغيب؛ لأنه لا يستطيع أن يوفق بين عمله الجديد هذا والمذاكرة؛ فهو يدخل غرفته مساء مهدود القوى خائر الأعصاب، فيرتمي على سريره ويغط في نوم عميق لا يصحو منه إلا على صوت خالته تطلب منه إيصالها إلى مكانٍ ما، فيصحو معكر المزاج وقلبه يتقطع، ففي ذلك الوقت أقرانه يؤدون امتحان مادة ما...

وهو...

لقد نفذت خطتها وقطعت عليه طموحه فتهاوى إلى الحضيض!!

تذكر ليلة البارحة، عندما خطف نفسه من بين الأوقات بعدما أوصل خالته للمشغل وطلبت منه الانتظار خارجاً... كيف استقبله زوج والدته وتشاجر معه...

كيف كان موقف والدتــه السلبي تجاهه، فهو لم يفعل ما يغضب زوجها ولم تتعد زيارته لها الدقائق..

شعر بمــرارة شديدة، وهرول مسرعاً نحو الحمــام فغسل وجهه ولبس ملابسه وركب السيارة في انتظارها..

دلفت من الباب، قائلة له: سنمر على إحدى رفيقاتي ونصطحبها معنا إلى السوق..

لا أريدك أن تتكلم بكلمة واحدة مفهوم..

هز رأسه صامتاً.

ســارت السيــارة يغلفها الصمت.. شق رنين «الجــوال» الهدوء، فردت: نحن بالقرب من منزلكِ، هيا استعدي..

مــا هي إلا ثــوانٍ وركبــت صديقتهــا بجانبهــا، بدأتا تتحدثــان في بهو وسعادة، فطرحت صديقتها موضوع السائقين والخدم وأنها تحسدها على هذا السائق المؤدب...!!!

قالت زوجة أبيه: هذا سائق عندنا منذ زمن وهو جيد يسمع الكلام..

أراعــه ما سمع فحاول تنبيهها إلى أن هذا لا يصح، وقال: هل أنتظرك يا خالة، فهذا هو السوق..!!

صرخت صديقتها: إنه عربي..!!

التفــت إليهــا معلقاً: أنا مهند ابن زوجها و لا أعرف لماذا تقنع نفسها بأني سائــق ممتهَــن؛ فكل ما أؤديــه من خدمة إنما هــو مراعاة لرضــا أبي وعدم إزعاجه وحمل بعض الهم عنه لا غير، ولا أتقاضى مقابل ذلك ريالاً واحدا؟!

صرخت خالته في وجهه وهي تتلفظ بأسوأ الألفاظ نحوه وتنعته بالفاشل، وأنه مجرد شيء تافه، ففتح باب السيارة ورمى المفاتيح عليها وسار راحلاً إلى المنزل الذي وجد والده باستقباله يتلون غضباً وحنقا عليه؛ فقد اتصلت زوجته تخبره بما فعل وانهال عليه ضرباً حتى فقد توازنه وسقط على الأرض وهو يبكي، بعدما تعرض لأذى نفسي وجسدي.

حاول أن يوضح لوالده خطأ خالته.. ولكن سحب نفسه لغرفته السقيمة ورمى بجسده على السرير، فتهاوى داخله الألم وفار رأسه من الغيظ، وقرر شيئاً!.

حمل الأوراق وما حصل عليه من شهادات لم تتعد بدايات المرحلة المتوسطة وانسحب بهدوء..

كان يسير وهو يلهث من التعب، فقد قاربت الشمس على المغيب..وهو بلا مأوى..حتى وصل إلى ورشة لإصلاح السيارات ليسقط بجانب جدارها المتهالك! لا يعرف بالضبط كم من الوقت مضى.. كل ما يتذكره أنه أفاق على صوت شخص يوقظه، قد بدت عليه ملامح الوقار والطمأنينة، ويكسو وجهه نور الإيمان.

همس: أنا آسف، فقد كنت متعباً!

طمأنه الرجل وأدخله الورشة فسمع له، قال مهند: إن سمحت لي سأعمل لديك مقابل إقامتي وطعامي فقط؛ حتى أتعلم فنون الميكانيكا، فهل تتكرم علي وتمنحني هذه الفرصة؟.

هز الرجل رأسه، مؤكداً له أنه يلمس الأمانة في عينيه، ويجب أن يحرص على سلامة المحل وموجداته.

مضت الأيام «بمهند» وهو يعمل بجد وإخلاص على ترتيب الورشة وإظهارها بمظهر جذاب ونظيف، حتى تغيرت ملامحها وصارت بشكلٍ آخر؛ فأقبل الزبائن عليها وزاد دخلها مما أدخل السرور على الرجل وقرر منح مهند مكافأة مالية، ليصرِّف بها أموره ويشتري لنفسه ملابس نظيفة.

صار يدرس ليلاً ويعمل نهاراً حتى أتمَّ المرحلة الثانوية بجدارة لم يتوقعها صاحب العمل، مضت أيامه وهو يمشي حذراً خائفاً..

ففي أحد الأيام كان يسير، فمر من أمام رجل يتصفح إحدى الصحف فرأى صورته في الصفحة الأخيرة وقد علتها جملة: (مفقود؛ الرجاء البحث عنه).

بالطبع لم يكن غير والده الذي يريده سائقاً لزوجته القاسية. في تلك الليلة لم يذق طعماً للنوم، فما بين يديه يثبت أنه حاصل على الثانوية العامة بجدارة.. بل ويمكنه مواصلة تعليمه الجامعي فما المانع؟!

قرر محادثة صاحب الورشة ورجاه أن يستبدل بدوامه الصباحي دواماً مسائياً، حتى يتسنى له العلم والعمل..

ابتسم الرجل ابتسامة المعجب بتصرفه ووافق على الفور...

خاض غمار الجامعة ومعترك التعليم العالي، فبذل وأعطى ونجح.. وتمر السنوات، وها هو على أعتاب التخرج إلا أن زوجة والده تحاول التشويش عليه بإرسال إرساليات للبحث عنه، فقد جن جنونها عندما شكت أنه من الممكن له أن ينجح وحده في الحياة.

لقـد كان يسير بجانب الحائط لا يرى غير طريقه؛ حتى يتفوق وينجح ويتخـرج بجـدارة. دخل عليـه صاحب العمـل والبشر يكسـو وجهه يهنئه ويعرض عليه أي مساعدة يريدها؛ كي يبدأ حياته العملية وحده..

لكـن «مهند» قرر أن يبقى بجانب الإنسان الـذي عطف عليه وساعده، بعدما رآه وقد كبر سنه وضعفت قوته، فكان له ما أراد.

ذات يـوم تفاجأ باثنين من رجـال الشرطة يلقيـان القبض عليه ففزع متسائلاً: ماذا هناك!

أخـبره الشرطي بأنه سيعرف التفاصيل بالمخفر أمام الضابط وهناك ووجهـا لوجه أمام والده الرجل الصلب الذي نعته بالسارق والخائن، وجد أمامـه سيـلاً حافلاً مـن التهم الجارحة؛ فقـد اتهمته زوجـة أبيه بسرقة مصوغاتها قبل الهرب، فانهالت المشكلات على رأسه، كأنها مطرقة صلبة لا ترحـم، ولأول مـرة تنهمر الدموع على لحيته، منـذ أن ترك منزل والده وبنى حياته وهو يرجو الضابط بالتمهل، فلا صحة لكل ما قيل!

زُجّ بـه في السجـن لأربعة أيـام وأفرج عنه بكفالة ذلـك الرجل الطيب الـذي حضـر إلى السجن ونفى كل ما قيل عنـه واصطحبه إلى منزله وهو يحاول تهدئته واختلاق العذر لوالده المغلوب على أمره.

لكن الكآبة والحزن قد تغلغلا في أعماقه وبات ينظر إلى الدنيا بمنظار أسـود، زاد همه وحزنه خبر مـوت شقيقه الصغير تحت عجلات السيارة، وهـو يلهو، مهملاً من زوجة والـده.. رث الثياب.. جائعـاً.. تسكن نظراته ألوان من الغربة؛ فهاهو في منزله، ولكنه غريب الدار..

وغريب الدار ذاك قرر الرحيل..

كان مهند يأمل أن يجد سكناً نظيفاً يليق به ويضمه عنده ويعوضه سنوات الحرمان ما بين أم أنانية.. وأب ظالم.. ولكن القدر لم يمهله حتى يستقر تحت ظل أخيه الأكبر.

فهذه الحياة تخطف أمانينا.. حتى تتضاءل أنوار شموعنا فنعيش على هامش الظل الخافت بين الشك واليقين.

أصابه نوع من خيبة الأمل، وهو يحاول الوصول إلى أهدافه التي ضاعت أدراج الرياح..

كان صاحب الورشة بوقاره وطيبته يحاول بذل المستحيل؛ حتى ينتشله من براثن الوجع والضياع فيصل به إلى بر الأمان، حتى نجح واستطاع أو حاول نسيان الماضي، فكانت صورة شقيقه «سامي» تتلاشى بسنواتها السبع كل ليلة وفي كل منام !!

قرر الهروب من تلك المدينة والاستقرار بمدينة أخرى، فكان له ما أراد ومما شجعه على ذلك أن صاحب الفضل عليه كان قد قرر الرحيل إلى تلك المنطقة؛ ليعيش بين أولاده وأحفاده.

رحل.. ورحلت معه ذكرياته بآلامها وأتراحها، وها هو ينحني تحت مكاتب الحياة؛ ليلتقط ما تبقى له من أوراق.

راحلة... عبر مرفأ الذكريات

كانت الأستاذة تدور حول المقاعد التي تلبَّسها القلق.. تلتفت هنا وتدير ظهرها هناك، حتى استطاعت ضبط مها وهي تنقل ما بقي من إجابة عن طريق برشامة صغيرة!.

نهرتها بصوت عالٍ ووضعت خطاً أحمر برأس الورقة وساقتها إلى الإدارة. رجع الهدوء إلى الصف، إلا أن التوتر بادٍ على كثير من الوجوه التي يعلوها العرق، فمكيف الصف لا يعمل منذ مدة طويلة، ومهندس الأعطال في إجازة! وما هي إلا لحظات وجمعت الأوراق..

وخرجت.. كانت تسير، وهي تشعر بأن من يسير معها يعرف إلى أين وجهتها، فعيناها فقط مركزتان على الطريق، أما فؤادها... أما قلبها الحزين فقد استقل زورق الصعاب، وها هي تخوض المعركة، محاولة الخلاص من الأمواج العاتية، ولكن...

وصلت إلى المنزل، وقد بلغت أحزانها الذروة، تلقتها والدتها وهي تحثها على الصبر واحتساب الأجر، ثم دلفت من باب غرفتها واستلقت.. مبحرة.. مسافرة... وتذكرت: بالأمس كانت هنا... كنت أتضجر من أي حركة يصدرها رضيعها...

بالأمس كانت ضفائرها السوداء المسترسلة، ومسحة الشموخ المنبثقة من عينيها السوداوين.. وحتى أنفها الذي احتل قسماتها ببسالة.. تستفزني.. تثيرني، تشعرني بقوة الإحساس بطمسها.. واليوم!!

انتصبت واقفة أمام المرآة، ورأت نفسها... شقراء، وجهها كدائرة كرة مفلطحة... عيناها تميل إلى الاخضرار... كل هذه الصفات ورثتها عن والدتها التي كثيراً ما كانت تقلق قلب نورة تلك شقيقتها من أبيها!

تذكرت حين كانت والدتها تدخل الغرفة ليلاً وتغطيها وتطبع قبلة على جبينها فتسمع تنهيدة عميقة قد صدرت من جانبها.. من السرير الآخر.. «لنورة» التي تسبل باقي الغطاء على وجهها حتى لا نكتشف الدموع التي تسربلت على خديها..

حدثت نفسها..

لقد نشأنا سوياً.. وبعدما فقهت الأمور سألت أبي عن سر اختلاف الصفات بكل منا..

وتفاجأت عندما قال لي هامساً:

نورة تشبه والدتها كثيراً رحمها الله.. وأنت مثل والدتك!.

منذ تلك اللحظة اتضح لي حلّ اللغز، وعرفت سر اهتمام والدتي بي وحدي والضغط على أختي بالأعمال المنزلية دوني..

حتى ذلك اليوم الذي تسرب الخبر عن موعد ملكتها على أحد الأشخاص! كانت مستسلمة طائعة، في عينيها بريق الحزن، وفي قلبها الكدر المدفون! فقد حكم عليها بالتوقف عن مواصلة دراستها، زفت إليه واستقلت زورقها بجانبه لا تعلم ماذا يحمل لها من أقدار؛ ولكن تفاجأت، لقد استردت جزءاً كبيراً من الثقة بنفسها.. أصبحت لها شخصية مميزة وصار لها كيان!!.

وبما أن الأيام لا تدوم على وتيرة واحدة..

فخلال ولادتها الطفل الثالث شاءت إرادة الله أن تتوفى مختتمة بذلك أروع صورة من صور الطاعة لربها ثم لزوجها المحب وبذلها لأطفالها..!

وتتوقف برهة ليجتاح مشاعرها نوع من التأنيب.. نوع من الشجن الممزوج بالإصرار على التضحية..

لقد طلبت من والدها أن يعرضها على زوج أختها زوجة مخلصة محافظة على أطفال أختها ومصرة على تربيتهم! ويقبل الزوج...

اليوم هو آخر أيام الامتحانات السنوية، كانت تحتل مكاناً وسط زميلاتها ولكنها بعيدة عنهن بأحلامها... آمالها... ما تصبو له نفسها من تضحيات!.

كانت عازمة على بذل المستحيل لكي تتخيل عيني «نورة» وقد أشرقت بالفرح، على العكس مما كانت تراه من دموع قد كحلت نظراتها التائهة وسط عائلتها!.

في تلك الليلة كانت تستعد للرحيل معه، فهي ليلة زواجها منه، بالطبع دون دفوف..

دون أنوار.. دون فرح، فما يعتمل بأعماق الزوج من حزن وإن مضى على وفاتها سنة كاملة كفيلٌ بأن يلغي جميع أنواع الفرح في نفسه..

وتدخل حياته.. ولكن.. كان ينظر إليها كزوجة فقط.. كمربية.. كأم لأطفال فقدوا أمهم.. أما العشق الأسطوري.. أما رائحة الحب الفريدة فلن تتكرر مرة ثانية أبداً أبداً!.

كانـت تصارع أنواعاً من القهر والكـدر والألم بل والإحساس بالغربة وهي بجانبـه.. عندما تهز كتفه توقظه وهو يبكي نائماً يرجوها بألا ترحل ويناديها باسمهـا على مسمع من أختهـا التي أصرت على التضحيـة وتحمُّل المسؤولية التي طمست معالم البهجة بدخول حياة جديدة ينتظرها مستقبل مجهول..

في ذات مسـاء كانـت السماء ترش قطرات خفيفة مـن المطر.. استقل سيارتـه وتوجه نحو البحـر.. فقد كانت تتحـول إلى شاعر مسحور عندما تجلس أمامه وتلـك القطرات تغسل قلبهـا.. وهو يسمعهـا.. ينصت دون حراك خوفاً من أن تتوقف...

شعرت بالإحباط... تلمست مشاعرها فوجدتها قد رحلت منذ زمن... منذ زواجها هذا ـ قررت التوقف.. أمسكت قلماً وكتبت:

«كان يراودني أمل بأن أكون الأم والزوجة والحبيبة، ولكن وجدت أنني واو زائدة بين أحرف حياتك، فعذراً لاقتحام مملكة أحلامك الخالدة»...

التوقيع داليا!

أوراق متساقطة..

كان الغـروب قد أوشك على الرحيل، وقطـرات خفيفة من المطر بدأت بالتساقط..

أطلقـت زفـرةً شديدة عبر نافـذة الزجـاج المطلة على الشـارع العام فأحدثـت خربشة غير متناسقة عملـت خطوطاً عشوائيـة عبثت بالطبقة التي غلفت زجاج النافذة من أثر الضباب.

ألقت النظرة الأخيرة على هذا المنظر الرائع الذي صنعته يد الباري بتناسق جذاب يوحي لها أنه مرآة لما يعتمل بكيانها وأحاسيسها في تلك اللحظات.

وتوجهـت إلى المذيـاع وأدارتـه وأنصتت: وقع هجوم مسلـح بالدبابات والمدافع الثقيلة على إحـدى الدور في فلسطين المحتلة أسفر عنه استشهاد تسعة عشر شخصاً منهم سبعة أشخاص من عائلة واحدة!؟.

استشهاد طفلـة في أثناء تناول طعامها مع عائلتها بمنزلها إثر صاروخ غادر.

انتشـار الفوضى والشتات إثـر تشابك الأحزاب وإطـلاق أعيرة نارية أدت إلى مقتل عدد منهم؟!.

تعالـت أصـوات الاستغاثة وطلب النجدة عندمـا دوّى صوت انفجار في إحدى البنايات شمال.... و ....

نهضـت مسرعة، وعندمـا أحست أنَّ هناك صوتاً حـاداً وألماً صارخاً يغزو رأسها الساخن ويعبث بكيانها المتلاطم وهي تشعر بالإحباط والحيرة لما تسمع وترى من حروب ومشاكسات كثيرة انتثرت كأنها التراب فوق رؤوس البشر...

فتن.. حروب... تشتت ... انقسام وماذا بعد... اللهم رد كيد الكائدين إلى نحورهم واحمنا وبلدنا وديننا ممن أراد بنا سوءاً.

أقفلت المذياع وهي تتمنى لو أنها لم تفتحه .

شعـرت بالملـل.. قررت أن تخـرج إلى أي مكان تنسى بـه هذا الصراع الأخطبوطي الذي توزع على رأسها.

استقلا السيارة معاً وسارا مسافةً ما إلى أن وصلا إليه...

إنه مكان هادئ رومانسي تغلب على أثاثه الكلاسيكية والأصالة الهندية، في المدخل يستقبلك نادل يرتدي الزي الهندي فيفتح لك الباب مرحباً بك، وفي البهـو العلوي الذي احتل تقسيمات متعددة تشعر من يرتادها بالراحة النفسية والخصوصية التامة.

دلفا من خلال البهو إلى الزاوية المقربة إلى نفسيهما وجلسا... ما هي إلا دقائـق حضر بها النادل عارضاً عليهما قائمة الطعام، اتفقا على وجبة خفيفة وجلسا يتأملان...

طفـلان يعبثـان بالستـارة الخاصة بهما فيطـل وجه أحدهمـا منهما ويبتسـم ثم يهرب، فتأتي شقيقته وتطل هي الأخرى وتتكلم بلهجة هندية، علـى ما يبدو إنه ترحيب أو اعتذار عن فعلـة أخيها الصغير وتذهب، أكثر ما شدها إلى الطفلة شعرها الأسود الفاحم الطويل.

فجـأة تناهـى إلى سمعيهمـا أصوات قادمة لم تكـن لغير مجموعة من السيدات اتفقن على المكان المجاور لهما.

جلسن وتبادلن التحية وأبدين نقدهن على «مشاعل» لبعد المكان وطول المسافة، إلا أن «مشاعل» قهقهت وهي تقول هو الأقرب إلى أكلاتنا التي لا تخلو من البهارات المنعشة...!.

رن صوت «الجوال» وأنصتت عندما شدتها المناقشة...

ـ هلا «هنادي» وين «مشاري» نائم أم لا ؟؟

ـ «مشاري» يبكي وتعبان، متى تجي يا ماما؟؟

ـ ماما «كارمن» تريد محادثتك.

ـ ماما «مشاري» فيه حرارة كثير؟!.

ـ أنت يعطي خافض حرارة «5 مل» وكله نوم مفهوم ؟!.

أقفلت الخط وهي تتضجر من الوضع، والبقية تكاد تغطي أصواتهن ومناقشاتهن على صوتها.

قالت: تعبت، أشعر بالملل والسأم مما يمر بحياتي، منذ الصباح الباكر وأنا أصحو وأهيئ نفسي وأطمئن على الصغار حتى ذهابهم إلى مدارسهم، ثم أستقل السيارة بعد جهاد في إيقاظ زوجي من نومه الثقيل إلى المدرسة حيث الدوام، ولسان مديرتنا الذي لا يرحم، ثم أعود بنهاية الدوام مهدودة القوى، فأتأكد من أن أولادي قد أنهوا وجبة الغداء مع الشغالة، أصعد إلى غرفتي وأنام قليلاً حتى أستطيع تحضير بعض الدروس عصراً ومراجعة دروس أولادي؟.

التفتت «جواهر» نحوها وهي تتساءل: ولماذا كل هذا التعب، الأولاد أحضري لهم معلمة، والدوام أحضري لك سائقاً، أريحي رأسك من النكد وحرق الأعصاب.

تحدثت أخرى: ألا تعلمين ها أنا سائقي تحت خدمتي وأولادي لا أعرف عنهم غير التقارير التي تصلني؛ إن كانت جيدة الحمد لله، وإلا عليّ البحث عن معلمة غير التي تأتي لتعلمهم.

وأنا وزوجي اتفقنا على أن لا يكلم أحدنا الآخر أو يتدخل بخصوصياته ومشاويره، نحن ولله الحمد نثق ببعضنا، والشغالة تقوم على خدمته وهندامه على أكمل وجه، وماذا بعد؟!.

صعقت «منيرة» لما سمعت وهي تنظر إليهن بعين الحذر، قد فكرت كثيراً قبل الموافقة على دعوتهن هذه، حتى في بعض اللحظات يخامرها إحساس بالتمني لو أن زوجها معها الآن في هذا الجو الجميل دون رفيقاتها وأفكارهن.

حتى «مشاري» الصغير سلمته وللمرة الأولى بحياتها إلى الشغالة وهو يعاني من ارتفاع بدرجة حرارته، أي قلب هذا الذي يتربع وسط صدرها بأمان.

قطع عليها تفكيرها ومعاتبتها نفسها صوت «بدرية» وهي تسأل «جواهر» عن زوجها الآن أين هو؟

ردت عليها «جواهر» ببرود بأنها لا تعرف ربما باستراحة أو مقهى أو... لا تعرف ولكن لا يهم؟ استنفرت «منيرة» وهي تقول لها: ولماذا كل هذا ألا تخافين من عاقبة ذلك.

قالت: «جواهر» هو البادئ... تخيلي منذ ثلاث سنوات كان يذهب من أذان المغرب مباشرة ولا يحضر للمنزل قبل الثانية والنصف ليلاً، وأنا كنت وقتها أحرق في أعصابي ودمي وهو لا يهتم لذلك، حتى قال لي

مرة: اخرجي مع رفيقاتك، لا تجلسين فريسة للأوهام والهواجس، فجربت الخروج وها هي تكررت مئات المرات.

صحيح أنني أشعر بمرارة لعدم التقائنا إلا نادراً، فأنا أحضر إلى المنزل وأنام، فيحضر هو وينام. وفي الصباح أذهب قبل ذهابه إلى مدرستي، وفي المساء هو يخرج بعد أن يصحو من نومه وأنا كذلك.

أما الأولاد... الأولاد... فهم و...؟

قاطعتها «منيرة» وهي تقول في يد الشغالة؛ في يد إبليس تتلقفهم القنوات وتزرع في أفكارهم وعقولهم بذرة الشر والدمار، ونحن كل واحد منا يعاند الآخر ولا يهمه غير نفسه، أفهمتي نفسه فقط؟! وكل هذا وأنت مرتاحة الضمير وهو خالي المسؤولية وكأنه قد وضع لهم النجاح والثقافة والثقة والأفكار النيرة عندما زج بهم أمام هذا الطبق دون رقابة أو اهتمام لما يتلقفونه، وتفرَّغ هو لزملائه وسهراته.

كانت هذه المناقشة كفيلة بأن تشعل بقلبها نوع من الندم والإحساس بالضياع لكثير من الأسر التي من المفروض أن تبني جيلاً واعياً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوالديه، كيف سيحصل ذلك وسط هذه الأجواء التي يعيشها الجيل سنة بعد سنة !.

حضر النادل يحمل العشاء وهي تنظر إلى زوجها بفخر وسط رائحة الطعام الشهية الدافئة، متمنية من الله أن يديم عليه ما هو به من أخلاق، وأن يوفقه ويسدد خطاه، ويرزقه برَّ أطفالهم بهم غداً عندما يتلفت كل أب وكل أم إلى من يكونون لهم عمداً ونبراساً يتلمسون به الطريق... إلى الجنة.

رفعة...

كانــت إشراقة الشمس الخفيفة وقطرات المطــر المتساقطة على رؤوس الفلاحين بشرى خير وعطاء تدخل على القلوب نشوة وابتهاجاً.

انتصب كل فلاح يحمل فأسه فوق كتفه وكأنه يقف لحظة احترام لهذا الزائــر الكريم ويراقــب أسراب الطــلاب السائرين بجانــب الطريق وقد غمــرت أنفسهم السعادة من رائحة الحياة المشبعــة بأريج الزهور وبرودة الندى المتساقط من الأغصان.

صورة أبدعها الخالق -عز وجل- تدفع الفلاح إلى أن يكون شاعراً ينثر أرق الكلمات مع قطرات العرق الباردة.

لمــح العم «عبدالله» ابنه ناصراً وهو يحتضن كتبه متوجهاً إلى مدرسته بجد ونشاط؛ فابتسم له وهو يلوح بيده ويدعو الله له بالنجاح، فهذه السنة النهائية لمشوار تعليمي باهظ وطويل عليه.

أطلق تنهيدة عميقة وهو يتأمل (ناصراً) يساعده في الحقل بعد النجاح ويكــون له اليــدُ اليمنى حتى يرتــاح في خريف عمره المجهــد ويشعر بثمرة جهده وصبره طوال تلك السنوات.

انتهــت الامتحانات وظهرت النتائج فكان مــن المتفوقين، ولم ينس أبداً أن يبحث عن اسم «رفعة» تلك الحلم المستقبلي لحياته!

ووجده..كان اسمها يحتل الأولوية مما أدخل البهجة والسرور على نفسه..

لقد راودته فكرة مصارحة والده برغبته في الاقتران بها وعزم على ذلك... وما إن فاتح والده بذلك حتى شعر كمن يسقط من ارتفاع شاهق وهو يسمع والده يقول: يا بني...«رفعة» تحزم حقائبها استعداداً للسفر إلى المدينة حيث الجامعة... والسكن الجامعي... والغربة...

كان وقع تلك الكلمات على قلبه كالخنجر المسموم المفاجئ! لكنه لم ييأس..

وذهب إلى صديقه فالح، يستفسر عما سمع ويحاول تثبيطه عن هذه العزيمة التي أصر عليها حتى شعر أنه لا جدوى من الكلام!

حان موعد السفر... والسيارة تقف أمام منزلها العتيق؛ فاستأذنت والدتها ووالدها للسلام على جيرانها، طرقت الباب فانفرج سريعاً ولم يكن وراءه غير ناصر الذي وقف مشدوهاً وهو يحاول أن ينطق بكلمة فلم يستطع، كانت تدور في رأسه الفائر مئات الأسئلة... لماذا الإصرار على الرحيل؟! دلفت وسلمت على والدته وأخواته وطلبت منهم الدعاء لها وخرجت.

بالطبع لم يدر بينهما أي حديث، فمنذ تدثرت بعباءتها وكانت في العاشرة من عمرها توقف الحديث مع صبيان القرية؛ لأنها كما قالت والدتها أصبحت فتاة محتشمة يجب أن تكون محافظة وألاتتحدث إلى الرجال..

كان أخوها فالح يعلم بتعلق ناصر بها وتعلقها به، ولكنه يعلم أيضاً أن هذا الميل والود لا يمكن وصاله إلا بالزواج؛ لذلك كان بمثابة المطمئن لصديقه بأن أخته ليس لأحد غيره.

رحلت «رفعة» ورحل فؤاد «ناصر» معها، وحطت رحالها حيث استقرت بالسكن الجامعي الخاص بالطالبات، بينما فالح استأجر سكناً برفقة مجموعة من زملائه الطلاب، مضت الأيام تباعاً نحو غدٍ مشرق بالنسبة لرفعة وأخيها، بينما «ناصر» كان الليل رفيقه بعد أن رفض والده التحاقه بالجامعة أسوة بزملائه بحجة مساعدته له بالحقل!

ها هي «رفعة» تستقبل أول يوم لها بالجامعة..

فتاة قروية بسيطة تتدلى فوق كتفيها ضفيرتان بربطات صفراء، وقد وجدت مقدمة رأسها طريقاً سوياً لفرق الشعر عن بعضه..! أما أذنيها فقد استرسلت منهما حلقتان ملونتان من الخرز الأزرق، فكان منظراً ملفتاً ومضحكاً في الوقت نفسه لقريناتها بالجامعة!.

أحست أنها وسط بحر هائج تلطمها الأمواج من كل اتجاه.. لكنها لم تستسلم..

أصرت على حفظ الدروس والاهتمام بتخصّصها ومحاولة السير مع التيار دون مبالغة بشيء.

ذات مساء دخلت مسؤولة السكن إلى قاعة الاجتماعات وأخبرتهم بأن يوم غد سيكون إجازة، وعلى كل واحدة استلمت مكافأتها أن تستعدَّ إن أرادت الذهاب إلى السوق لشراء ما يلزمها.

كان هذا الخبر بالنسبة لها بوابة التغير ومحاولةً لمسح الصورة التي كثيراً ما كانت تؤرقها.. صورة البنت القروية البدائية.

قررت صرف جزء كبير من المكافأة في اقتناء ما يجمِّلها، فهبت مندفعة إلى أقرب الصديقات..

(هيا) كانت ذو مسحة إيمانية.. نفسها مطمئنة.. حديثها تتخلله الآيات.. لبقة طيبة لا تخطئ بحق أحد وتصفح عمن أخطأ بحقها، التجأت إليها، حدثتها بنيتها وطلبت المساعدة، رحبت هيا بذلك وبذلت معها أقصى ما في وسعها؛ فكانت بالنسبة لها الانفتاح على عالم مليء بالأناقة والجمال!!.

من الغد فاجأت زميلاتها.. إلا أن تلك الضفائر لم تتغير..

انتهى الترم الأول، تلاه الآخر، ومن ثم السنوات؛ وتفاجأ الجميع، فقد كان اسم «رفعة هويمل.....» يحتل أول الخريجات مع مرتبة الشرف!.

كانت فرحتها لا توصف، والعميدة تسلمها وثيقة التخرج وتبارك لها متمنيةً أن تكون عوناً لرفعة قريتها ونفعاً لأهلها.

فكرت رفعة كثيراً، وقررت مواصلة التعليم العالي، وقدمت أوراقها فقبلت.

كان الإصرار والعزيمة -بعد التوكل على الله- الركيزة القوية التي تسير عليها؛ فانفرجت لها الصعاب وتخطت العقبات بيسر وسهولة..

اليوم هو الأول لها في القرية تستقبل سيارتها الخاصة للذهاب إلى المستشفى المتواضع الذي أنشئ قريباً، حيث اعتدلت بجلستها على الكرسي وقد نثرت ما تبقى من ضفائرها السوداء على أكتافها بعدما تخلصت من بقيتها رغبة في مسايرة الزمن...

دخلت عليها مريضة تتألم.. كانـت على وشك المخاض، فأمرت بنقلها بسرعـة إلى غرفة العمليات، وسارت بجانبها حتى استقرت حالة المريضة بعد وضعها لطفلها الجميل..

مسحـت عن جبينهـا وباركت لها وأخـذت تتأمل تقاطيـع الطفل وفي قلبهـا هاجس ماضٍ لأحلام لم تتحقق، وسألـت والدته ماذا ستسمينه؟! وهـي تمسـك القلم لتكتـب، ردت: سأسميـه «عبودي» فهـذه رغبة والده ناصر الـ...

ضجت مشاعرهـا ودخلت بوتقة الماضي.. فـرأت نفسها طفلة الثامنة تلعب بإحدى العرائس في الحقل، يرافقها صبي في التاسعة وهي تصرخ به احمله فإنه يبكـي، فيحمل الدمية وهو يقول لها هذا «عبودي» ابننا عندما نكبر...

وتختلط قهقهات طفولية مـع زقزقة العصافير الهاربة من موجة رياحٍ شديدة اندفعت فجأةً وهزت أغصان الشجر!.

شاطئ يسكنه الصمت؟

حاولت إطباق جفنيها والهروب من ذلك الإحساس القاتل فلم تستطع..

أبحرت عبر تأملاتها وأطلقت لخيالها العنان فامتطت زورقاً صغيراً؛ ولكنه استطاع أن يعبر بها إلى جزيرة الأحلام متخطياً عوائق كثيرة!

ولكن هناك... في إحدى الزوايا الغائبة في الوجدان تجتذبها أصوات لم تكن غير أنين مرّ مصراً على التسرب نحو يقظتها.. نعم إنه الخوف.. الشعور بعدم الأمان.. شعرت ما يشعر به المحكوم بالإعدام وهو بريء ولم يُبلّغ لحظة إعدامه..

صار يموت مئات المرات في يومه.. يترقب بصمت قاتل حتى وصل مرحلة من اليأس تمنى نهايتها بأقصى سرعة.. حتى يختم رحلة الألم ويصمت هاجس النشاز ولو لم يكن مذنباً!...ولو لم يكن مذنباً!

وجدت نفسها تجاهد لحظات الغرق حتى استطاعت الوصول لليابسة؛ فرمت بجسدها الهزيل على الأرض، ودلفت غيبوبة الانتصار على الأمواج فحلمت.. وحلمت.. ورأت نفسها طفلة الأمس تلهو في البهو الشاسع المرتب يشاركها إخوة وأخوات تتقارب أعمارهم!

أدارت وجهها صوب الشمس، فلمحت جدتها تحمل خبزاً وتتوجه نحو دكة عالية نوعاً ما، فتضع الطبق وهي تتمتم بذكر الله واسمه!

هناك وخز قاتل يغـزو أمعاءها.. يبليها.. تشهق.. تبتلع ريقها، تكومت أنامـل «مها» الصغيرة المبللة بلعابها، فرسمـت خربشة غضة عبر صفحة الأرض الملساء؛ فأحدثت تناسقاً ناعماً يحكي اغتيال طفولة!

كانـت رائحة الطعام المختلـط بالبارود تزكم أنفهـا... تغويها... تغزو أنفاسها المتلاحقة!

تذكرت ابتسامتها التي تلمع «بسن» صغيرة قد شقت طريقها نحو مقدمة شفتين رقيقتين... كان لها عينان تلمعان.. تنم عن ذكاء فطري ولكن؟!

لحظة اغتيال...

رأت الجـدار يهوي على جسدها الغض، فتطلق آهةً واحدة فقط واحدة وتتسمر نظراتهـا الأنينية، فتطبق عينيها نصف إطباق، وكأن الألم يسكن عند سكون أنفاسها الهاربة!

مـاج المنزل بصراخ يختلط باستغاثة، فـر الجميع.. أما هي فقد كانت تسير بحالة ذهول فضيع..

انحنت.. مدت يديها بعزم.. لم تهمها تلك الأحداث التي تحيط بها، لم تستوقفها الأخطار من كل جانب..

احتوت جسد الطفلة وغمست رأسها البارد وأطرافها الصغيرة بصدرها وعنقهـا.. شعرت بأنها بأمان.. كانت تسير بهدوء ممزوج باللامبالاة بأي شيء؛ فلا قيمة لأي شيء الآن بعدما سكنت نظرات مها!

هنـاك بكاء.. عويل يسد مسامعها.. يرحل بها إلى عالم مجهول.. دنيا من الصمـت المطبق على جراحات عديـدة.. الآن.. توقفت لحظات القلق عند منحنى آخر..

وهذه الدنيا.. دهاليز الألم.. صفحات العفو.. سراب الانتظار...!

ولكـن.. الصبر له حدود.. كان وجوده في حياتها غلطة كبرى.. لا تزال أوجاع الذكريات تسكن أعماقها.. تتراءى لها في كل لحظة..

ليس هناك بـوادر استعداد لهذا القـادم... فما زال الجـرح ينزف.. ولكن.. حكم عليها بالصمت المغلف بالطاعة.

دخـل حياتها كضيف ثقيـل.. كمشاعر بلهاء لابد لهـا من إصلاح.. لم يرتق جروحها...

لم يداوِ وخزاتها.. بل زادها همّاً.. سكن مع باقي الجراحات...

كان منها التفاتة إلى ذلك البناء... نظرة أخيرة لملمت بها ما تبقى بها من قوة وغادرت راحلة...!

شواطئ الدنيا ...

كانت عبارة عن زهرة جورية وسط فل متناثر، شاء الله أن تحتل المرتبة المميزة وسط هؤلاء الأشقاء من الذكور، فكانت بسمة المنزل وإشراقته الساطعة..

كل ضحكة أو مناغاة تصدرها بمثابة التغريد المتناهي إلى الأسماع، وكأنه لمجموعة من العصافير الجميلة انطلقت عبر الفضاء في فرح...

لم تكن تعلم وهي حبيبة جدتها ما يضمره لها الغد، وتمضي الأيام وبشرى تكبر فتكبر معها أحزانها، فها هي ابنة الرابعة تفقد أمها في لحظة خاطفة جاءت على غير ميعاد؟!

فتتقلب بين أحضان جدتها وأبيها مدة قصيرة لم تتعد الأشهر، لتفاجأ بوجه جديد.. ملامح غريبة لم تألفها من قبل، يعلوها العبوس والتحدي، فترتعد ملامحها الصغيرة، ولا يسكن ذلك الرعب في أعماقها إلا عندما يقبل والدها فاتحاً ذراعيه لها وكأنه قرأ مئات الأسئلة التي تدور في رأسها الصغيرة محاولاً تقريبها من زوجته التي انقلب عبوسها انشراحاً ولطفاً في حضوره، إلا أن الصغيرة تصرخ وهي تتشبث بأطرافه طالبة الأمان والذهاب بها إلى والدتها... وهي لا تعلم بأن والدتها لن ترجع، فقد غيبها الموت؟!

وطواحين الزمن تدور...

وتفيق يوماً لترى حركة غريبة تحدث بالمنزل، فتقبل نحو جدتها التي فقدت دفئها بالفراش باكراً، وما إن اقتربت حتى فاجأتها غزارة الدموع المنطلقة عبر عينيها، فهمت بحسها الطفولي أنَّ شيئاً ما قد حدث لوالدها... الأمل الأخير...

لقد أصيب بشلل رباعي أسكنه عن الحركة بعد حادث الساعة الرابعة فجراً؟!.

وتبكي... ثم تبكي ولا تستطيع إيقاف ذلك الوادي المنهمر من مقلتيها الصغيرتين.. فابنة الرابعة أصبحت الآن في التاسعة من العمر، وعليها أن تسير الخطى بحذر.. فاليوم لا معين لها غير الله ثم تلك العجوز الحنون.

اليوم هو الحادي والعشرون من ربيع الثاني وبهذا الرقم أتمت الخامسة عشرة من عمرها، وما زالت تحاول إخفاء ما يختلج في كيانها من إرهاق وروح ممزقة موهمة من حولها بأنها تعيش بسعادة وهناء!

شاء الله أن تجد نفسها وحيدة بعد رحيل أبيها وجدتها...

أفاقت ذات يوم على خبر سعيد يتخلل الأحزان التي تملأ حياتها..إنه طارق يطلب يدها.

كان أخوها ماجد يهمس لها خوفاً من علم زوجة أبيه بالخبر وعرقلة إتمامه..

إنه شاب صالح كريم مكافح شق طريقه وجمع ماله وأسعد إخوته..

فكان يسعى لتزويجهم واحداً تلو الآخر ويؤمن مستقبلهم برأس مال وإن كان ليس بالكبير، حتى إذا تفرغ لنفسه التفت يبحث عمن تقاسمه الحياة؛ فما قولك؟

علت حمرة الخجل وجنتيها وابتسمت مع إيماءةٍ خفيفة كأنها غيمة صيف.

أعطى إشارة الموافقة وفرح «ناصر» بقبول طلبه، وتم كل شيء وسط معارضة زوجة الأب الجائرة!

ودخلت بشرى حياته، وتلمست جوانبها فوجدته إنساناً يحمل ما قيل عنه من الصفات وأكثر، وحمدت الله كثيراً على هذه النعمة وهذا التوفيق.

مضت الأيام بهما، وصار لديها خمسُ براءات يملؤون المنزل حركة وبهجة ومناوشات؟!

ولكن الأقدار لم تدعها، ففي تلك الليلة الغامضة تلبسها الذهول وسامرت جواً من الغربة؛ فقد رحل عنها عند سماعه خبر خسارته الفادحة، وبقيت وحيدة مع أطفالها تطلب من إخوته العون عندما غرقت الباخرة وهي تحمل رأس ماله، ففقد كل شيء.

لم تتصور أن يكون جزاء الإحسان النكران؛ عندما تنحوا جميعاً رافضين المساعدة.

خافت أن يعلن اسمه وخسارته، أصرت على المحافظة على مشاعره حاضراً وغائباً، اجتمعت بأطفالها وشرحت لهم الوضع وختمته باستعدادهم للرحيل؛ فقد وجدت مسكناً في شقة صغيرة ستأويهم حتى يأتي الفرج!

عرضت تلك «الفيلا» الفخمة بمحتوياتها للبيع، وما هي إلا أيام قليلة حتى حضر المشتري، الذي تعجب من جمال هذا المنزل وأناقة أثاثه.. وكيف لأصحابه أن يبيعوه بهذه السرعة..

تنفست الصعداء وبيدها «شيك» بمبلغ خيالي لم تحلم به في هذه الظروف، خيم الظلام على ذلك المسكن الصغير وجلست تفكر... وتوزع المبلغ في حسبة جيدة، تكتب اسم كل مدين وأمامه المبلغ حتى انتهت، وعندما راجعت ما بقي لها انتفض جسدها، فقد توفر مبلغ مالي جيد بإمكانها أن تبدأ به تجارة معقولة.

توكلت على الله ونامت وهي تحلم بسداد الدين في أسرع وقت ممكن...

أشرقت الشمس، وكانت فعلاً شمس غد يملؤها الاطمئنان، فها هي تعود برفقة أخيها من البنك بعد أن أودعت آخر مبلغ مستحق على زوجها رحمه الله.

دخلت منزلها وعلى محياها خطوط البهجة والفرح بالرغم من أنه فرح ممزوج بحزن لفقدها رفيق دربها، إلا أنها أحست بأنها تصرفت بما أراح ضميرها.

حدثتها صديقتها بالهاتف تعرض عليها شراء مشغل بعاملاته، ففرحت ولكن الفرحة لا تكتمل دائماً، فقد فقدت المبلغ في سيارة الأجرة التي استقلتها هي وابنها البكر في طريقهم إلى صاحبة المشغل.

رجعت وهي تحاول تهوين الأمر فحدثت نفسها..

ماذا لو لم يتبق مال من الأساس؟ ماذا لو لم أرزق بشارٍ للمنزل؟..

وتمتمت اللهم عوضني خيراً مما فقدت..

رن جرس الهاتف كانت صديقتها أم فيصل تستفسر عن سبب عدم مجيئها لإتمام الصفقة مع البائعة...

حكت لها ما حصل، وعرضت عليها العمل عندها كمشرفة على المشغل إلى أن يتوافر المبلغ، فوافقت صديقتها برحابة صدر، وأسرعت بشرائه لوحدها وسلمته لها للإشراف عليه وتلبية طلباته.

توالت الأيام وهي تحاول جهدها أن توفّق بين رعاية أطفالها والاهتمام بمنزلها والعمل بالمشغل.. حتى أتى اليوم الذي كانت تتهيأ فيه لحضور حفلة تخرج ابنتها الصغرى من الجامعة، وهي تحمد الله بأن يسر لها الصعاب فربت أطفالها وساعدتهم حتى وصلوا إلى مراتب عالية، وسعت إلى تزويجهم وها هي «نجلاء» آخر العنقود تتوج هذا النجاح بالتخرج بامتياز.

انتهى الحفل...وعادت إلى المنزل وهي تشعر بأن في قلبها فرح...

فرح ممزوج بحزن ورغبة جامحة في لقاء زوجها ونفض جميع ما علق بقلبها من بذل وتضحية ونجاح..

وفي الغد كان خاطب «نجلاء» قد حضر ووالدته للاتفاق على إتمام مراسم زفافهما.

مرَّ الشهر وكأنه دقائق وثوانٍ بجانب حبيبتها الصغيرة «نجلاء» التي غادرت وزوجها سريعاً إلى منزلهما البعيد..

وتدق أجراس الصمت...

فتجلس بالشرفة المطلة على حديقة المنزل الجميل الذي استردته بعافيتها وصحتها وجمعها لكل ورقة نقدية تخصها، وكان ثمنه قد تضاعف

إلا أن أولادها الذين أصبحوا رجالاً لم ينسوا جميل والدتهم التي تمنت الرجوع إلى منزل الأحلام الوردية والذكريات الجميلة، فساعدوها على شرائه مرة أخرى من مالكه الذي لم يتأخر دقيقة واحدة بعد معرفته لقصة الكفاح العظيمة، ورغبته هو بالعودة إلى مسقط رأسه ليعيش ما تبقى من عمره بجانب أحفاده.

كانت تتخيله وترى نفسها شابة الأمس الجميلة بحيويتها ومرحها، فتنزل إلى ذلك الركن الهادئ الذي كثيراً ماجلسا فيه يحتسيان الشاي..

وتدور... وتدور حتى أحست بدوخة خفيفة أجلستها على المروج الخضراء؛ ففتحت عيناها لترى السماء بغيومها القطنية وتتخيل تقاطيع وجهه وتطبق عيناها نحوه إلى الأبد...!

ع ز و ز...

أحرفٌ.. تائهة

وسـط تلك الضجة التي مـلأت أذنيه الصغيرتـين تسلل بحذر ويخطو برفـق.. حتى لا تكتشفه جدته!.. أرخى سمعـه.. فها هم يتهامسون.. على بركة الله، بارك الله لك.. وبارك عليك.

نظر من ثقب المفتاح فرأى!!

رأى شيئـاً لا يمكـن أن ينسـاه في حياتـه.. رآها.. نعم هـي والدته وقد توشحت لباساً أبيض وبدت كأنها البدر في تمامه ولكن؟

ابتعد قليلاً.. وبالقـدر الذي سمح له بها الثقب.. أن يرى، راعه الأمر، فهز أركانه الصغيرة حتى تسربت رعشة قوية عبر أوصاله الغضة فارتجف قلبه وتساءل:

مـن هـذا الرجل الذي بجانبهـا.. بالطبع ليس أبي «حمـود» إنه ذلك الزائر الذي كان عند خالي «أحمد» واشترى لي تلك اللعبة!

يا إلهي إنه يمسك بيدها ويتوجهان نحوي.. نحو الباب..

وما هي إلا برهة حتى صفعته شدة الأنوار، فكان وجهاً لوجه أمامهما!

كانـت تلك النظرات من عينيه الصغيرتين نحو والدته كفيلة بأن تفهم ما يجول بكينونته التائهة من عتاب يملأ المكان.

أمـا الرجل.. أما صاحـب الهدية فقد نالته نظرات مـن خيبة الأمل.. والاستحقار.

لم يعـيراه اهتماماً.. ومضيا إلى الخارج حيـث كانت السيارة بسائقها تنتظرهمـا.. استقلاهــا يشقان طريقهما الجديد المحفـوف برغد العيش دون مبالاة به.

جلـس على عتبة المنزل يرقب غروب المركبة بما فيها، فسقطت دموعه على خديه.. وعاد للداخل يجر الخُطَى وقد عاهد نفسه أن يخبر أباه بهذا الحدث الفظيع، فلم يبق لديه سند في هذه الحياة غيره.

في مسـاء اليـوم التـالي للصدمة التـي تلقاها من والدتـه تسلل خلسة وأطلق لساقيه الصغيرتين العنان ركضاً..

اقـترب من منزلهـم الغـالي.. تلمس جدرانـه.. وشم رائحـة التراب المتناثـر حـول الشجيرات الرطبة التـي تحيط بذلك الشمـوخ.. تراءت لهُ سنواته القصيرة بين جنباته، رأى نفسه يحبو.. ويلهو.. ويبكي ويضحك.

دفـع الباب ودلـف منه! كانت الأنوار مضـاءة ورائحة البخور تفوح في كل مكان!

أشرقت شمس والده عندما لاح محياه أمامه..

حـدث نفسـه... نعم هـو والدي «حمود» والـكل يسلم عليـه.. سأذهب إليـه.. سأهمس بأذنه وأخبره سراً ماذا رأيـت، دون أن يسمعني الرجال، سأرتمي بأحضانه وأبكي.. سأدع جرحي المسموم ينزف أمامه ليطهّره من قطرات الدم الفاسدة.

نعـم.. كان يحـدِّث نفسه بكل الهموم.. بكل القلـق الذي اعتلى محياه، ولكن راعه عدم اهتمامه به.

تذكر خاله وهو ينهره دائماً بابن...!

تسـاءل كثـيراً: لماذا أنـا هنا وحـدي دون أمي التي غـادرت عالمي إلى الأبـد.. وأبي القريب البعيد.. من عاش بجانبـي قليلاً.. من وافق على أن أبتعد وتنازل عني بسهولة.

وسط تلك التساؤلات اندفع نحو والده كأنه سهم محموم.. غرس رأسه الفائـر بحضنه وحاول الوصـول إلى أذنه ليهمس لـه.. لينثر أمامه هموم الروح المذبوحة ولكن؟!

أباه اليوم قبّله قبلةً باردة وأجلسه بجانبه وهو يستغرب حضوره في ذلك الوقت بالذات، ويكرر عليه السؤال بحزم: من أتى بك إلى هنا؟

لم يعلـم بأنـه هاربٌ مـن وحش الغربـة! ما هي إلا لحظـات حتى ضج الجميع ونهض والده بصحبة مجموعة من الأشخاص إلى داخل..

فدسـ جسده الصغـير بينهم.. ولكنهـم نهروه.. أبعـدوه عن الباب.. وسمع من يقول: ممنوع دخول الأطفال!

حملوه رغماً عنه، خرجوا به إلى منزل خاله..

عنـد الباب سمع حامله يعاتب خاله بكلمات عرف بحسه الطفولي أنها تعني اللوم؛ لأنهم اشترطوا أمام القاضي أن يكون لوالدته دون تدخل والده به إلا للزيارة فقط، فكيف يتركونه يهيم على وجهه هكذا!.

استلمه خاله وهو يزج به إلى الداخل شاكراً مرافقه وعائداً إلى «عزوز» بتلك الصفعات القاسية والكلمات الجارحة التي زرعت بقلبه الشتات، فتلونت أمام عينيه فصول السنة بآن واحد.

خلد إلى النوم بكدر، تغسل وجهه قطرات من الدموع المرة وأنفاسه تكاد تتقطع، ولكن لابد من الهروب من الواقع الأليم، ولو من خلال النوم.

كان الجو قارساً.. وأنفاسه تتلاحق.. فقد عاودته نوبة الربو اللعينة.. تخبط باحثاً عن آلة البخ.. ولكنه لم يجدها.. لا يعرف أين وضعتها والدته قبل رحيلها؟ سعل وضعفت حركته فسقط وسط الظلام..

وهدأت.. أنفاسه؟!.

الخذلان!

لم تكن منيرةُ ذات الأربعة عشر ربيعاً تعي ما تقوله والدتها وهي تبارك لها قدوم خاطب يريدها لابنه.

كان طويل القامة عريض المنكبين، تعلو وَجهه ملامح الصرامة والطيش، وكل شيء في حياته مجرد لهو.. تسلية لا يلبث أن يشعر بالملل منها...

لم يكن يستوعب قول والدته لوالده فلنخطب له ونزوجه لعله يعقل ويركد طيشه وتتزن تصرفاته... في صبحية العرس جلسوا حولها مبتهجين.

أرخت كفوفها لناقشة «الحناء» لترسم على أناملها نقوشاً، في كل خط منها كانت ترمي به إلى خط السعادة والحياة الموفقة... لم تدرك نظرة الضياع التي كانت تكسو ملامحها، واستمرت بالنقش مع تعالي «زعاريد» التي ملأت جنبات المنزل...

حل المساء وتعالت أصوات الدفوف، وكست الجو موجة من الضباب الكثيف ذي الرائحة العطرة، إنه للبخور المتصاعد من بهو الصالة !.

عندها أقبل الموكب تتوسطه زهرة صغيرة لم تتفتح بعد، يعلو رأسها الصغير تاج مرصع بالماس، قد عكس على وجينتها ألواناً متتابعة

توحـي لمن يراها أنها طفلة من أطفال مسـرح الحياة؛ وقد أخذت هي دور العروس...!

جلست وجلس بجانبها، ليس هناك أدنى تناسب ...؟

تـكاد أناملها الصغيرة تلامس الأرض من فـوق الأريكة... أما هو فقد تربـع كالأسد بجانبها يوزع نظراته المنطلقة في كل صوب نحو الحاضرات، فيتابع واحدة حتى تختفي لتحتل الأخرى مكانها في الرقص!.

انتهى الحفل وذهب كلٌّ إلى بيته ...

أمـا هي فقد تأبطت قدرها المحتوم تصـارعُ أفكاراً غريبة قد اجتاحت قلبها الصغير بالرعب والخوف، وانقلبت الكلمات الحلوة التي سمعتها من والدتهـا عن تلـك الليلة إلى كوابيس مرعبة، فقـد كشفت لها الأيام الوجه الآخر له، ووجدت منه التسلط وعدم مبالاة بها وبمشاعرها الرقيقة؟!.

أتمـت الشهر الأول، وحان وقت زيارتها إلى أهلها، فحملها هو و والدته وتوجهوا إلى قريتها، وعند وصولها باب المنزل تسربت من بين شفتيها آهة مندفعة وكأنها ريـاح شديدة قد حملت أوجاعاً من جوف الصحراء لتبثها عـبر الفضاء إلى... إلى لا شيء يسمع أو يستقبل. تذكرت تلك الزاوية من باب الدار وهي تلاعب إخوتها الصغار فتختبئ منهم...

تـذكرت تلـك الخـريزات المتناثرة التي كانت كنزها الثمين في وقت مضى...

ترقرقـت الدمعات الحارة، وهي تضم صـدر أمها الحنون تشم رائحة أمانها وتنطلق من عينيها الحوريتين نظرة عتب لما بها من حال.

توجهت إلى أخوتها الصغار واحتضنتهم وقبلت أناملهم الغضة وهي تبكي، وكأن هذه العيون الصغيرة تقرأ ما بداخلها من أنهار البراكين المكبوتة؟!.

أشرقت الشمس وهي تغط في نوم عميق بجانب طفولتها الحبيبة، صار حالها كمن وصل للتو من سفر مرهق يتخلله عراقل وكوارث كتب الله له النجاة فحط رحاله في أمان وغط في نوم عميق... محاولاً التخلص من تبعات هذه الرحلة و مشاقّها.

أفاقت على صوت والدها وهو يوقظها، فزوجها ووالدته قد حضرا لاصطحابها؟!.

فزعت وانتثرت دموعها المنهمرة وهي تقبل يد والدها تستجديه بألا يسمح لهما بأخذها؟!.

ولكن .... قد نصاب بنوع من خيبة الأمل في أعماقنا عندما نشعر أننا قد أمسكنا بحبل النجاة فننطلق فجأة ونتهاوى في بؤرة من الضياع، فلا نجد غير تلك الهاوية من الشرود التي تفتح لنا ذراعيها وتحتضننا بقوة.

نفض يديها عنه بقسوة مهدداً إياها إن لم تستعد للرحيل بأقصى سرعة فإنه سيضربها ؟!.

قال لها: المرأة ليس لها غير بيت زوجها وطاعته بكل أوامره بغض النظر عن تصرفاته.

قتل طفولتها بعنف وكأنها وضعت في صحراء شاسعة قاحلة ليس حولها أي صوت للحياة؛ فكانت تهيم على وجهها ولا تعلم إلى متى سينتهي هذا الفضاء...

ركضت نحو والدتها ترجوها... تشحذ عطفها لعلها تستطيع منعهم من أخذها.

توقفت عندما تفاجأت بالدموع الغزيرة وهي تنطلق من عيني والدتها بحرارة وكأنها بركان قد ثار للتو ليخرج ما بجوفه من آلام مكبوتة منذ سنين؟!.

توقفت... تراجعت للوراء وكأنها قرأت الرسالة المرّة؟

قبَّلت أشقاءها وسط ذهولهم، ورحلت مع زوجها ووالدته!.

تلونت الأيام في ناظريها أنواعاً من الكدر، وفي كل مرة تذهب إلى منزل والدها تجده يزمجر ويتوعدها إن لم تعدْ سيقتلها؟!.

صار لمنيرة تسع سنين، كان حصيلتها خمسة أفواه يرقبون ألوان الذل التي تتعرض لها والدتهم من جدتهم وأبيهم.

لم يكن لمنيرة عزاء؛ فقد توفيت والدتها متأثرة بما جرى من أوجاع بعدما راحت في غيبوبة عميقة وكأنها بذلك قد رفضت البقاء في هذا الوضع؟!.

أما والدها فقد تزوج وصار إخوتها يشكون لها حالهم حتى أصيب واحد منهم بالصرع، فكانت تأتيه نوبات لا يفيق منها إلا وإخوته بجانبه يرقبون حالته بذهول.

وذات يوم وبينما كانت تشق طريقها نحو غرفتها تفاجأت به يتهامس مع والدته عن إحدى الفتيات التي رأتها الأم في زفاف البارحة وقد أعجبتها وملكت لب قلبها، أخذت تشجعه لتخطبها له فهو يملك الكثير من المال!.

كانت هذه الكلمات أشبه بالصاعقة التي نزلت على رأسها، وخافت حتى أحست أنها في معتقل تتذوق فيه أصناف العذاب والظلم والاستبداد..

فحتى صبرها عليه وما تلاقيه منه من قهر ومعاملة قاسية نجد أنه بمساعدة والدته سوف يختتمه بما هو كفيل بإنهائها.

بكت وهي تتخيل أطفالها كإخوتها الذين زج بهم والدهم إلى من لا تخاف الله، ولا ترجو عفوه، فكانت تلك الزوجة الشرسة التي استخدمتهم كخدم حولها تأمرهم وتصرخ في وجوههم فلا يستطيعون الرد فيصمتون، والله وحده أعلم بما في قلوبهم من كمد وحسرة!.

لقد تراءت لها صور أطفالها أمام من لا تصبر عليهم في غضبهم... أفكارهم مبلبلة في لحظات عتاب رفضت قلوبهم الغضة تحمّلها!.

طافت في مخيلتها صورة مرقدها وحدها في مكان ما... هل هو مضيء أم أظلم... بالرغم من أنها لم تقصِّر معه في شيء... وبالرغم من أنه استخدمها كآلة صماء إلا أنها كانت تعيش على أمل بأن يتغير وتركد تصرفاته الطائشة وتفوز هي بالجنة التي قالت والدتها بأن الله وعدها بها إن هي صبرت.

ولكن... الآن وقد خارت قواها ستكون في المواجهة مع ثلاثة جلادين: والدته وهو والعروس المرشحة ؟!

معنى ذلك أنها لن تعيش مجرد خادمة فقط بل أكثر و أفظع من ذلك...

معنـى ذلـك أنها يجب أن تتخلص من جميع ما بداخلهـا من مشاعر وأحاسيس وحتـى شعورهـا بمـن حولها... تاهـت خواطرها وهـي تشعر بالخوف منه والخوف على أطفالها من القادم الجديد... في حياتها؟.

عندما...فقدت ذاتي

الورقة الأولى...

كانـت قطرات المطر الخفيفة تتقاطر علـى الزجاج وكأنها قادم غريب يطرق الباب على وجل!

لم تنـم في تلك الليلة؛ فشدة الآلام أبدت شراستها وهي تنهش جسدها النحيل المتساقط..

حاولـت النهوض فلم يزل في بقاياها نبض، تمنـت أن تمرر أنفها عبر النافذة لتسرق روعة الحياة ورائحة شتائها ولكن..

تحاملت حتـى استطاعت الوقوف بهزل، وخطـت خطوات نحو مصدر الصوت حتى استطاعت الوصول..

تذكـرت كلمـات دائماً ما خطـرت في بالها حين قالت لهـا: تأكدي بأن الأمل بالله والإحساس بالرضا نصف الشفاء..

فتحت النافذة على مصراعيها.. فداخلتها رعشة انتفض منها جسدها، لم يكن غير هواء بارد محمل برائحة أزهار الليمون وقت تساقط المطر..

مـلأت رئتيها بهـذا العبير، وأغمضت جفنيها مبحـرة عبر رحلة خلود ليس لها مثيل..

أفاقـت من سكرتهـا تلك عندما لامس أطـراف فستانها الأزرق إحدى رجليها من أثر الهواء..

أدارت نظرهـا نحو الغرفة فوجدت الفخامـة تسكنها.. والهدوء.. وكل ما يخطر على بالِ إنسان، عادت إلى ردهات منزلها الشامخ وتلمست أثاثه وموجُوداته بمشاعرها.. حتى أعداد الخدم واختلاف جنسياتهم..!

رجعت إلى واقعها المر.. المرض آه.. المرض ذلك الأخطبوط المتوزع على أجزاء جسدها المتهالك.

طافـت بذاكرتهـا الهزيلة... أبحرت عبر غيوم الماضـي لترى نفسها بين الأدراج كتلة من الهموم احتلت إحدى الزوايا تحاول الإنصات إلى المتحدثة!

مجرد فتاة وجدت الأناقـة طريقاً إلى هيئتها؛ فلبست أجمل ما وجدت بشـرط أن يكون مطابقاً لمـا يفرضه نظام المدرسـة... ابتسمت... عاشت أجمل ثواني عمرها الحافل بالأحداث..

فكانـت عبـارة عن شجـن متنقل... تـرى بعينـين، وتشـدو بألحان وقطـرات الحبر متناثـرة حول الورق تريـق عليها كل جـرح استطاعت تحويله إلى معنى...

كان جـو المدرسـة بالنسبـة لها حياة أخـرى يتخللها تقلـب الزمن بين أوجاع وسعادة؟!

لم تكـن تنقل هيبتهـا المكانية معهـا إلى الصف أو بـين الزميلات، بل أصغت إليهن... سعدت بروائعهن...

لحظـات ليست بالطويلـة ثم عـادت إلى واقعها الحـالي... بكت وهي تتحسـس أوراماً استطاعـت البروز قليلاً عن مستـوى جسدها... لها آلام شديدة...

ابتلعت ريقها... عثرات الحيـاة... النفس يتقطع والعظم منهك... ولا وجود لشيء يسمى القوة؟!

خطوات... وسقوط... تهالك... حتـى الأرض لم تمتص الأوجاع... أو تبلي الألم...

ثقلـت الأجفـان واشتد الوهـن... أطبقت وتراخى الجسـد، فقط عينٌ واحـدة استطاعت فتحها بضعف لتكـون نافذتها عبر بوابة الحياة... لترى من حضر... من وقف بجانبها لكي يزفها إلى دارها الخالدة الأبدية، تذكرت حين لبست ثوبها الأبيض واكتمل جمالها بدراً أبهر عيون من حولها..

كيف هي الآن، تذكرت أنها عاشت سنوات بها أخلصت... بها أنجبت... بها اطمأنت...

وأخيراً... أخيراً جاء دورها بعدما أوفت بعهدها!

كيف هي الأوجه، هل احتقنت العيون وفاضت مدامعها؟!

هل هناك مـن انبسطت أساريره وداخله الشعور بالرضا... غريبة هي الدنيا... لا بل نحن الغرباء!

نأتي بصرخة تخرج من حناجرنا...

ونرحـل صامتين إلا من آهة... بسيطة تحمل معـانٍ كبيرة من الكرب! فقط تتسرب عبر مسامعنا صرخات أحبتنا...

وكأن هناك اتفاقاً بين الولود والخلود؟!

الورقة الثانية...

يعج المنزل بجو من الغربة وافتقاد شيء ما يتحرك... يتنفس... يطلق آهةً تصدح فضاءاتها عبر الزوايا وفي الأركان...

وفجأة سقط القلم، وسقطت دموع المحبرة على ناصع البياض فحولتها إلى شاطئ ثائر ينسف هنا... ويجرّ هناك...

صارت مجرد ذكرى... رائحة شوق أبدي لن يتكرر مرة أخرى.. وخز مؤلم يغزو جوف ذاكرها...

وعبر طرقات الحياة أرى رسماً... عثرات حفرها الزمن في طريق الراحلين المسالمين... فكانت ندباً واضحة ينبه السائرين فوقها...

وأتى العيد!... آه العيد... ذلك الزائر الغامض؛ نعلن الفرح ونصدح بنشوته؛ ولكن... إنها النهاية لرحيل زائرٍ أغلى... وربما الوداع!

موجة عارمة من متضاربات تعبث بالكيان فتحولها إلى سلاح ناري... يرشق بطلقات نارية، ربما تكون نهاية المطاف... أو الحل الوحيد للركون إلى الصمت.

الورقة الثالثة...

كانت تبكي وليدة الحياة، لم يمض على ولادتها دقائق، أهو الرفض التام...

سلمتها لي الممرضة، لا تزال آثار المخاض تغسل قسماتها الغاضبة الدقيقة...

التفتُّ إلى والدتها.. التقت عينيّ بعيني ممرضتي... أشاحت هي عني... تحسست نبض والدتها لم أشعر بدفء الحياة.. فقط آهة بسيطة خرجت جزافاً.. بصعوبة نحو الخارج... سمعتها كأنها قهقهة حزن ساخرة! سكنت حركتها.. بردت.. شخصت نظراتها صوب الطفلة وتوقفت... إنه بالخارج... من؟

قالت الممرضة والدها، يريد معرفة جنس الجنين...

أشرت إليها أن تذهب وتخبره... ما زالت الطفلة تبكي.. أهو الخوف؟

قالت الممرضة.. لم يسأل عن والدتها.. لقد رحل!

وضعت الملاءة على وجه غريب للتوانسل من الدنيا... وحضنت الطفلة.. زاد التصاقي بها حتى سكنت وكأني شعرت بها وقد أرست مركبها وأغمضت عينيها الصغيرتين للمجهول ونامت!

بحثت بين ردهات المستشفى... لم أجده... كأنه ظل قد زال!.

الورقة الرابعة...

في جو مليء بالحركة... أصوات قهقهات.. التفتت نحو القادم.. إنها المراقبة «......» مازالت ضجرة لها صوت أشبه بالرعد وألفاظ....؟

صرخت بأعلى صوتها وكأنها كانت تكتم هذه الصرخة منذ سنين، وأطلقتها براحة الآن، ولكن هذه المرة بوجه طفلة لم يتعد عمرها الثانية عشرة...

ساقها قدرها إلى غرفة المعلمات لإحضار كشكول العلامات بطلب من أستاذتها.

انتفض جسدها فزعاً.. حاولت جاهدة إيضاح سبب خروجها من الصف ولكن...

عاجلتها بتلك الألفاظ النابية، وهي تلعن اليوم التي رأتها وزميلاتها فيه.

كجلاد يستحل مكاناً بين الفصول وعبر الممرات.

كان «لرؤى» صراعات ذات شجن، تسكن بين حناياها الغضة، ودائماً ما كانت تلك الصور البشعة تمر من أمام ناظريها وتتغلغل بين أغلى الذكريات، فلم تعد تتحمل فضحت بأغلى الوجوه وأقفلت راحلة....

الورقة الخامسة...

اندفعت نحو غرفتها... ألقت بملازمها جانباً وهوت على السرير..

كان منظر السقف أكثر من رائع.. فالغرفة سكنت جوانبها ألوان البحر، وتربعت بزواياها رائحة المطر، كان رذاذ من باقة عطرية تحمل بين جنباتها أحلاماً رومانسية، يتخللها بعض من رسمٍ لوجوه راحلة... ووجوه مازالت تنتشق الهواء!

كان منها أن التفتت إلى صوت طائر تتابعت ألحان حنجرته...

نعم، الطائر نفسه الذي يصدح صباحاً في حديقة الكلية...

أطلقت آهة...

لقد رحلت أمنياتي عبر المتاهات، وانطفأت شعلة حماسي وخَفَتَ طموح الحيـاة في كياني، حتى بدأت أسير... فأمرُّ من أمام حدائق الأمل مسرعة متلاحقة الخطا كأنهُ الهروب من روعة الحياة...

بعدما فقدت كل شيء؟!

أغلقت النافذة وراحت تتصفح مذكرةً مهترئة كانت لسنواتٍ سابقة قد سكنت فؤادها؛ فلمست من خلالها معنى الانتماء الروحي...

دارت برأسها أفكار وتساءلت: الآن نحن نسير عبر طرقات الحياة؛ نقطف من هنا.. وننهل من هناك، وتمضي بنا الأيام ونحن رُحَّلٌ سائرون نبحث.

نبحـث عن ماذا؟ عن نجاح..! عن أمنية..! ربما تتحقق!!! ولكن غداً.. في نهاية المطاف هل نجد الضالة.؟

هل نطبق أجفاننا بصمت فترسو أجسادنا على الأرض... الأرض التي تمتص ثقلنا وننام بنعيم.

أم تكـون مجرد غفوات.. غفـوات يتخللها ألم مر ثابت لا محالة إلى أن نتوقف!

خاطرة...

شعـرت بصـداع شديد يغزو رأسهـا انزوت... تنحَّـت إلى ركن خافت الإنارة في إحدى الزوايا بعد أن أغلقت الستائر بإحكام، لفّت نفسها بشال ناعم غزير، كأنها تغافلهـم لتطلب قسطاً من الانزواء بعيداً عن معاركهم التي لا تنتهي.

أغمضت عينيها وصمتت، كأنها تنتظر هدوء العاصفة وسكون الضجيج.. لتبدأ رحلتها الكفاحية من جديد وسط ضجيج الصغار والكبار..

هي... هي تلك أمي!

قلوب يملؤها الكدر..

لم يبقَ على العيد غير ثلاثة أيـام، وها هو عمر يقفز نحو والدته ملحاً يطلب منها شراء ما تبقى له من أغراض هو وأخواته.

كانـت دموعـه غالية جـداً على قلـب والدتـه ووالده، فهـو الوحيد بين شقيقاته البنات اللاتي كانت فرحتهن به لا تسع الدنيا.

عزمـوا على الذهاب إلى المدينة لشراء مـا يلزمهم، ركبوا فرحين، كل منهـم يتخيـل ما سيقتنيه، وتسـير المركبة ولم يعلم أحدٌ بـأن هذا المشوار نهايةٌ لحياة مستقرة وعيش هانئ، وبداية لشقاء يتخلل كل من تبقى، وكتب له أن ينبض قلبه بالحياة!

وزورق الحيـاة يحملنـا لنخوض عبـاب البحر الشاسع بمـا يحمله من خفايـا ومفاجآت، فمن كتبت لـه السعادة فهو من يسير عبر أمواج هادئة، تدخـل النشـوة أعماقـه إلى أن تفاجئـه لطماتها بين الحـين والآخر كقلق يتخلل حياتنا لنتذوق مرّها ونعيش حلوها!

وتفيـق الأسرة بعـد أن فقدت ربّانها وحنانها؛ فقـد رحل الأب تصحبه زوجته، وكأنهما أبيا أن يفترقا حتى في الرحيل!

كانـت منيفة تلتفت بعد أن لمت شمل إخوتهـا، أختان وأخ لم يتعد عمره السابعـة، وتقرر الذهاب إلى أعمامها لعلها تجد من يمد لهم يد المساعدة ويرعاهم بحمايته ولكن...!

لقـد هالهـا مـا سمعت وهــي تهـم بالدخـول إلى غرفـة الضيافة وأعمامها مجتمعون...

قـد كسر قلبهـا ما تسرب إلى أذنيها من حديـث.. بل من وخز قاسٍ لا يمكن أن تنساه ووصلت الرسالة..

الكلُّ ليس لديه استعداد لأن يحوي أيَّ فرد منهم؟!.

حملـت جراحهـا واستقلت راحلـة إلى «خالهـا» لعله يجـبر مصيبتها وإخوتها، ويرتق الجراح.. ويستقبلهم...؟!.

وتمضي الأيام التعسـة بشيء من الذل، فقد فرض عليها وشقيقتها أن تكونا جاهزتين.. لأي خدمة تطلب منهما طائعتين لا مختارتين!

وتبكي «منيفة» وهي ترى ما حل بهم من ذل وإهانة، حتى «عمر» أخوها الطفـل الغـالي لزم عليه الذهـاب كل صباح باكراً لإحضـار أرغفة الخبز للعائلة، بينما الجميع يغط في نوم عميق وراحة تامة.

راعها ما قرأت في عينيه من فزع وهو يركض نحوها وينغمس بحضنها، فقـد كان يسير ذاهباً كالعادة إلى المخبـز ولم يشعر أنَّ خلفه كلباً مسعوراً بدأ يلاحقه.. فانطلق بأقصى سرعة حتى وصل إلى باب المنزل الذي عمد إلى عدم إقفاله بعده ودلف محتمياً بأركانه ولو أنه غريب الدار.

عند طلوع شمس ذلك اليوم كان هناك قرار بانتظار الأيتام..

فمنيفة ونورة عليهـم الاستعداد؛ زفافهما سيتم الليلة من أبناء خالهم دون أي معارضة، وكذلك دون أي مقابل!

فقـط سيتم إحضار فستانين نظيفين كصداق وقطعة خاتم خاو من أي إضافات جمالية!

لم يكـن هذا القرار أرحم مما كانت تعانيه وشقيقتها نورة من قبل، بل كانتـا مجرد تسلية لابنـي خالهما ونزوة انتهت بطفل يتربـع بين أحشائها ينتظر المجهول بعد زواج لم يستمر أكثر من سبعة أشهر، ورحيل زوجها إلى دولـة أوروبية بحجة الدراسة، وإصـرار جدتها لأبيها بأخذ عمر وشقيقتها الصغـرى إليها بحجة أنهما تزوجتا وأصبحتا غير قادرات على رعايتهما، وإن استغلت ضعفهما لخدمتها فهي جدة وبمثابة الأم؟!.

في تلـك الأيام الصعبـة وصل إلى قلبها سهم مسمـوم عندما اكتشفت بـأن سبب انفصالها من زوجها هـي أختها نورة عندما همست إلى زوجها بأنهـا كانت تتمنى الزواج مـن شخص آخر كان يسكـن في الحارة، إلا أن الأقدار ساقتها إلى أخيك!

فمـا كان مـن زوج منيفة إلا أن طلقهـا بعدما فرح لهـذا المخرج الذي ساعده للتخلص منها والسفر حالاً بحجة الدراسة!

همست... هـل تكون شقيقتي سبب ضياعي وطفلـي؟!... هل يوجد في العالم من يعيش بهذه السذاجة وقلة الوعي؟!

شقيقتي طيبة حبيبة ولكنها لا تعي ما تقول، توالت الأسئلة عليها وكأنها في محاكمة مع ذاتها المتلاطم.

بلعـت «منيفة» جروحها وهي تصارع آلام المخاض، فتراءت لها والدتها الحبيبـة وهي تمسح على جبينها وتتمتم باسـم الله عليها، فشهقت تلاها

شهقــة أخرى تجاوزت الثالثة مع صرخة الحيــاة، فقد خرجت نفس بريئة للدنيا الشاسعة لترحل الأخرى إلى بارئها وخالقها، وكأنها أصرت أن تترك قطعةً منها... تحمل الملامح نفسها بل وتنادى باسمها... «منيفة»!!!

ليس إلا...

رحلت.. ورحلت معها ذكرياتها وصبرها بل.. وآمالها حتى صراخها علينا وقت الشجار.. حتى صمتها وقت غضب أبي.

لم تكن تعرف كم بقي لها من أيام بيننا.. فاجأنا القدر فبكينا.

وفتحنا أعيننا يوماً لتأتينا أخبار وهمسات..والدي؟

نعم والدي ينوي الارتباط بأخرى.

كانت عمتي تلح عليه منذ رحيلها.

سبحان الله!

تراءت لي الحياة وكأننا بها مجرد آلات!... تستبدل بأخرى جديدة بعد أن تنتهي مدة صلاحيتها.

صرت بعد هذا الحدث أنظر للأسرة بعين الحذر والإحساس بالوحدة والخوف منها وعليها.

كان رنين الهاتف لا يتوقف، قادني فضولي لأرفع سمّاعته هذه المرة، فقد كنت عكس إخوتي لا أحب التحدث من خلاله.

فاجأني صوت سيدة أجش يُسلم ثم يلقي عليّ أسئلة كثيرة من ضمنها كم عدد الموجودين بالمنزل وما هي أعمارهم!

أصبـت بإحساس محبـط... محطم كمن استيقظ فجـأة على أصوات صراخ.. ولكنها في الداخل.. سكنت جوانب روحي واحتلت زوايا القلب بعد أن أحدثت بجدرانه شروخاً كثيرة...!

كيف صارت حالنا... وكأننا في مزاد...

تلاشى الدفء... الاستقرار... الذي لم نعرف قيمته حتى فقدناه.

تساءلت: لماذا تريد معرفة أعمار إخوتي وعددهم...

جـاءني صوتها حادٌ جريء، من حقها السـؤال عن كل شيء في المنزل، ويجب عليكم احترامها؛ فهي ستكون بمثابة والدتكم.

والدتكم!؟ صعب السؤال، لقد دار في مخيلتي عندما قالت والدتي.

التفتُّ فالتقت عيناي بحدقات «عبودي» البائس وهو يحتضن «جلال*» ويخطو ثم يتعثر ويسقط، كانت تصلي به دائماً... ورحلت...

لم تأخذ معها غير رائحتها.. وصلاتها...

قال أبي: هناك «عمّال» سيجرون بعض التعديلات بالمنزل..

احملي إخوتك واذهبي لجدتك...!؟

صعب السؤال دار في رأسي الفائر...

وسمعـت التعجب الأخرس يصرخ: «بعض التعديلات»...!؟، بل غرفتها الباردة ليس إلا!؟

رجعنـا إلى منزلنا بعد أيام؛ فكانت لهُ معالم جديدة تختلف تماماً عما كان، تذكرت..

---

*«جلال: هو ما ترتديه المرأة عند الصلاة».

كان لها أمنية بسيطة لم يستطع تحقيقها إلا...

إلا عندما رحلت.. ليس لها بالطبع!!!

دارت الأيام.. دخلت حياتنا..

هــي ابنة إحدى القبائل.. تربت على أشياء وقوانين من ضمنها احترام الــزوج ورعايــة أولاده، حتــى وإن كان يكبرهــا سنــاً.. حتــى وإن اقتحمت مشاعـر صغـاره... المهم أن يكبروا.. المهم أن يصبحـون رجالاً ونساء، لم تحو مشاعرها كرهاً.. ولم يكن حباً، هي حياة.. وأسرة فقط!!!

اتصفت مشاعرها بالبرود.

كانـت طويلة.. عريضـة نوعاً ما.. لهـا نظرة ثاقبـة.. ورائحة عطرها صارخة نفَّاذة كأنما تفرض وجودها رغماً عنا..

اقتربت مني ذات يوم.. رمقتني بنظرة تفحص وقالت:

لماذا تطيلين النظر بالأرض!؟...

التفـت إليهـا... بل انتقلـت حواسي فقـط إلى مصدر صوتهـا، بينما روحــي.. وإحساســي كانــت في مكان آخر بعيــدٍ عن الواقع المــر في حياتي الصامتة.

ذات يوم شعرت بأناملها تقترب من خصلات شعري فتصففها.. ثارت نفسي عندما تجرأت واقتحمت عالمي الخاص..

بكيت.. وكأنني طفل تائه امتزجت أحاسيس الغربة بمشاعر الحزن في أعماقه، فانطلقت آهاته عبر البكاء.

عاشـت معنـا... رأيتهـا عـدة مرات تحمـل «عبـودي» بـين أحضانها وتهدهـده... ولكنـه يتململ كل لحظة كأنما يفتقد شيئاً حتـى يدخل في غيبوبة النوم.

مضت أيامنا متلاحقة..

وكبرنا.. وتفتحت أزهارنا.. بالرغم من الجفاف.. بالرغم من الصقيع!

بالطبع ليس المهم أن يبرز جمالها تحت الشمس.. يكفي أن تظلنا أسقف السماء الشاسعة بكل تقلباتها حتى.. حتى وإن كانت ملبدة بالغيوم..!!

مساحات الألم ...

وجد نفسه فجأة وراء القضبان...

كانت نزعة الرفض التام لهذه الصدمة عنيفة فصرخ بأعلى صوته..

أنا بريء..أنا بريء؟.

اقترب السجان منه.. ألصق رأسه الفائر بالقضبان، تغسل قسماته الدموع الحارة والعرق، أخذ يقسم له أنه لم يرتكب ذنباً ولكن ..!!

رمقه السجان بنظرة حادة واكتفى بقوله: إن كنت بريئاً فأدعو الله أن ينصرك، وإن كنت مذنباً فأدعوه أن يغفر لك وانصرف!

تعاقبت الأيام على السجين وهو يكاد يجن مما هو فيه، واسترجع أصل القضية... كان يوماً مختلفاً عن باقي الأيام...

دخلت على والدي أحمل تكليفاً بالسفر إلى إحدى الدول الأوروبية لاستلام وضيفتي الدبلوماسية، وكنت أطير فرحاً من صفقة الحظ التي آلت لصالحي، فكم من شابٍ حديث تخرج يحمل (الماجستير) يحلم ولو مجرد حلم بهذا المنصب، ولكنها إرادة الله وتوفيقه ودعاء والديّ لي بالتوفيق، بخلاف أخي المشاكس، فمنذ أن وعيت على الدنيا أعرفه عاصياً الأوامر، مسبباً الفتن والمقالب، كان الفشل الذريع نهايته، فاكتفى بوظيفة بسيطة جداً بالكاد يصرِّف بها أموره.

كانت فرحة والديَّ بهذا الخبر السار مدعاة لأن يعرض علي فكرة الزواج من بنت بلدي بأخلاقها ودينها وحشمتها المغلفة بالجمال البكر الأصيل دون رتوش أو ترميم.

ووقع الاختيار.. «دلال» ابنة صديقه في العمل، الكلُّ يثني عليه وعلى أولاده وتربيتهم، لم أتردد لحظة واحدة، وعزمت على مصاحبة والدي لخطبتها.

لكن يبدو أن السعادة لا تكتمل، فقد اشترطت والدتها المتعجرفة عليّ مبلغاً باهظاً بالإضافة إلى حفل الزفاف الذي حددت مكانه في أرقى المحافل!

أذعنت للأمر خاصة بعد رؤيتي الشرعية لدلال، فكانت أجمل مما تخيلته من أوصاف مغلفة بنظرة حياء زادت من جمالها الأخاذ!

حُدد موعد الملْكة التي تسبق الزواج وبذلت من خلالها المستحيل لإرضاء والدة زوجتي التي بدأ زوجها بالتضجر من طلباتها مني ورفض هذا المبدأ، إلا أنها أقسمت أن تجعل زواج ابنتها أسطورةً يتحدث عنها الناس لمدة طويلة..

كانت بعد القران تحدثني وأحدثها، وأبث لها همي فأجدها تقف موقف العاجز الذي لا يرضى بهذا كله، ولكنها لا تستطيع عمل شيء، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفسها.. وبدأ الوقت يضيع مني ويقترب موعد سفري للعمل؟!

كانت تلك الليلة الحالمة التي لا يمكن أن أنساها، حيث هاتفتها في الواحدة ليلاً؛ فوجدتها تسامر همومها محاولةً إيجاد الحل؟..

فخطرت برأسي فكرة ربما اتخذت نوعاً من الجرأة والضرب بكل الارتباطات بعرض الحائط! همست لها أن تحزم حقائبها وتخبر جدتها ولنرحل وليكن ما يكون.

دخلت دلال على جدتها وهمست له سراً بما دار بيننا، وكانت جدتها «تصلي»؛ فهذه العبادة الجليلة التي لم تفارقها منذ فتحت دلال عينيها على الدنيا، كانت تقول لي ذلك، وأن جدتها تقول: فلنعط لآخرتنا كما أنعم الله علينا في دنيانا، فلا ينفع العبد الصالح غير أعماله.

فرحت الجدة بهذا القرار وساعدتها على حزم حقائبها وودعتها عند الباب بدعوات حارة تسبقها الدموع، وقد كنت في الخارج بعد أن أكدت الحجز السريع عن طريق أحد أصدقائي في المطار، حملت حقائبها التي دفعت بها الخادمة الأمينة إلى الخارج ووضعتها في السيارة بهدوء وركبت، وانطلقنا يتخبطنا الخوف والإحساس بالخطأ لهذا التصرف الذي لا بدَّ منه بعد مضي أشهر بين موافقة على الحفل وبين رفض من قبل والدتها القوية!

نزلنا في المطار نترقب كمن اقترف جُنحةً ويتوقع إلقاء القبض عليه مع أنها أصبحت زوجتي بعد عقد قراننا على سنة الله ورسوله، إلا أننا أسيري العادات التي تكون في معظم الأحيان حائلاً أمامنا وما أمرنا به ديننا، فلا داعي لكل البهارج التي ابتدعتها والدتها وأصرت عليها.

التقت نظراتنا بهلع عندما تناهى إلى أسماعنا موعد إقلاع رحلتنا وتنفسنا الصعداء والطائرة تحلق عبر الفضاء بعيداً عن أي أحكام أو فروض لا يقرها الشرع! وكان لدعاء السفر الكثير في بث الطمأنينة في نفوسنا القلقة، وكأنما تسرب الدفء إلى أعماقنا واسترخت أعصابنا المشدودة..

كانت رحلة يتخللها الإرهاق الممزوج بالقلق الذي ارتسم على وجه دلال وهي تتخيل والدتها بل ووالدها الذي لا تعلم ما هو رأيه بهذا التصرف المتسرع..

ولكن... عندما حطت الطائرة رحالها في (ملبورن) كنا أمام الأمر الواقع، وعند خروجنا للفضاء..شهقت دلال؛ فالجو يغلفه الضباب ولا أثر للشمس مع رشيقات خفيفة تغسل رؤوسنا ؟!.

عشنا أيَّامنا بسعادة لا متناهية، إلا أنها في بعض الأحيان كان يسرقها الموقف فتسافر إلى هناك خاصة بعدما رفضت والدتها الرد على مكالماتها، وأغلقت سماعة الهاتف بغضب؛ مع أن موقف والدها خلال المحادثة وطلبه منها أن تعيش حياتها دون منغصات.. إذ إنها لم ترتكب ذنباً؛ أدخل الاطمئنان على قلبها، إلا أنَّ والدتها دائما تكون عالماً من الهم والإحساس بالذنب!

انتهت مدة تكليفي في تلك الدولة وقد شهدت أحلى أيام حياتي وأنا أتقلب طوال تلك السنوات في بحر من العسل، أخرج صباحاً بكل جد ونشاط بعد أن أقبل أطفالي الثلاثة وهم يغادرون ووالدتهم إلى معهد بالقرب منا يتلقون تعاليم الدين الإسلامي ومبادئ اللغة ، وفي المساء أغادر عملي إلى منزلي الدافئ فأدلف من بابه عبر دهاليز السعادة والأمل؛ فيفاجئني وجهها المشرق البشوش، وأنظر إلى جمالها الأصيل الذي لم يطلع عليه أحد غيري أنا؛ فتستقبلني وقد أعدت المائدة وعليها ما أعشقه من وجبات منذ صغري فأتغدى وأرتاح قليلاً ، ومن ثم أصطحب عائلتي الصغيرة في نزهة فتنطلق نظراتنا عبر المروج الخضراء الواسعة، ويبهرنا ما نراه من

بعض الطيور الغريبة الملونة، فنحمد الله كثيراً ونحن نرى زهورنا تلهو أمامنا بسعادة كبيرة..

أتممت بقية أوراق مغادرتي وسط أسف زملائي الأعزاء الذين تمنوا تمديد مدة عملي بجانبهم، إلا أن مرض والدي كان السبب الأول لسحب أوراقي والعودة فوراً.

حططت رحالي على أرض الوطن الغالي، تنفست رائحة عطره العبقة، وأبهجت ناظري حبات التمر..المتدلية من النخيل، وصرت أشير إلى كل شيء يمر من أمامي من خلال نافذة السيارة وهي تسير وأشرح تفصيلياً ما هي وما أهميتها للبلد وأطفالي يصغون، بالرغم من صغر سنهم، إلا أنهم بدؤوا يطرحون الأسئلة الذكية..

ووصلت سيارتنا إلى منزل والديها؛ فنزلت «دلال» بقوة نحو الداخل واحتضنت والدتها بشدة إلا أنها لم تجد الشعور المتبادل بمثله، تلفتت باحثة عن والدها شمعة الدار ولكن..

لم يكن له أثر.. فقط ذلك المذياع القديم الذي كان يحتفظ به ويحرص على صيانته وتلميعه.. كان يعمل.. يبث أخباراً عن وفاة أحد الأشخاص الخيرين ويعدد مناقبه وأعماله الطيبة!..

شعرت بوخز يغزو قلبها؛ فالتفتت إلى والدتها التي أجهشت ببكاء وهي تخبرها برحيله قبل مدة.

لم تعِ دلال بعد هذا الخبر شيئاً، فقد تراخى جسدها وغابت عن الوعي وسط صراخ أطفالها المرعوب مما حل بوالدتهم!

حملت إلى المستشفى ومكثت عدة أيام إلى أن بدأت تستردُّ صحتها، وخرجت إلى منزلها وهي تشعر بالحسرة لعدم رؤيتها إياه قبل رحيله..

وهو من تمنى رؤية أطفالها؛ فقد كان واحداً منهم يحمل اسمه بشموخ، مضت أيامها وكأن الهدوء بدأ يرجع إلى نفسها راضية بالمكتوب.

رن جرس الهاتف؛ كان لأحد العمال المخلصين الذي يطلب من والدتها حلاً للشركة التي كانت تنهب بشكل مستمر من قبل الموظفين..

التفتت إلى زوج ابنتها وأعطته سماعة الهاتف وطلبت منه مباشرة العمل، حادث العامل وأخذ منه عنوان الشركة وذهب إلى هناك..

ففوجئ بالاختلاسات التي تمت خلال تلك المدة بطريقة ذكية لا يفهمها غير إنسان متخصص بذلك..

حاول حصر الخسائر ووضع يده على المتسبب الذي حاول الإفلات منه بطريقة أو بأخرى، إلا أن «فيصل» أثبت عليه ذلك.

كان المحاسب يضمر بنفسه نحو «فيصل» شراً، فعمد إلى إرسال أحد زملائه للعمل بدلاً منه بعد إعلان عن طلب محاسب أمين، ولم يكن يعلم «فيصل» وهو يوقع عقد العمل مع المحاسب الجديد بأن له علاقة بالمختلس الأول وأنه مرسل من طريقه للإيقاع به..

في ذلك اليوم الكئيب اندلع حريق هائل في الشركة فخطف ذلك المحاسب أختامها وزور أوراقاً تدين «فيصل» بتاريخ قديم، ورفع سماعة الهاتف مبلغاً عن ذلك؟! وما هي إلا لحظات وتم القبض على «فيصل» الذي أدهشه هذا الاتهام؟

حاول إثبات الحقيقة وإظهار الحق ولكن أمام الضابط أعمالاً مشبوهة ذُيلت بختم الشركة مع توقيعه المزور من قبل المحاسب المتمكن، فزج به بالسجن وهو يصرخ بأعلى صوته أنه بريء..

هناك صراعات مريرة كأنها بركان ثائر سكنت أعماقه فانزوى بعيداً عن العالم..

ومع كل إحساسه المشبع بالظلم اللحظات الرومانسية الحلوة استطاعت خطفه إلى عالمها المليء بالأحلام السعيدة فكانت سلوته.

أنا... ومن بعدي الطوفان...

هَيَـا.. يـا فرحة العمر البكـري.. يا شمعة أضاءت فضـاء وحشتي بعد طول انتظار..

لـن أدعو عليـك.. لن أجعل حـرارة فـؤادي وحرقة قلبـي تذيب جليد التماسك بين جوانحي..

أتمنى لك حظاً أوفر من حظي.. حياةً واعية وأمانٍ تتحقق، وأن تمضي أيامك بجانب من اخترتِ هنية سعيدة!!...

في الجانـب الآخـر من الحيـاة.. هناك ظـل يجثو علـى ركبتيه، ووجه مطموسـ بكفي الخذلان، ودموع تتسابق تعلـن حقيقة لخديعة أمام صخر شامخ ونفس أبية...

كانـت ككل الفتيـات.. شقت طريقها حتى وصلـت، وها هي تدلف عبر بوابة الجامعة يحذوها الأمل في النجاح..

إلا أن تلك القسمات لفتت انتباهها.. شدتها.. فكادت تسقط، وشعرت كمن يهفو قلبها نحو الأرض..

لقد تعلقت بها فتابعتها وسألت عنها حتى عرفت من هي وبأيّ مستوى..

كان تعلقها بتلك الزميلة شيء يفوق الخيال؟! أحبتها لدرجة العشق..

حتـى زميلاتها لم يتخيلـن وجودها دون تلك الزميلـة.. صارتا حديث القاعة.. فكأنهما روحان في جسد واحد..

مرضت هيا في تلك الأيام فكانت والدتها كالطائر الحائر تتردد بالدواء والماء تحاول تخفيف آلامها بأي شكل من الأشكال حتى وإن أخذت آلامها؛ فهي قطعة منها..

إلا أنّ هيا كانت تتخيل «عينا سارة» بين الفينة والأخرى، فكلما أفاقت من نوبتها تخايل لها دخول أشعة رقيقة تحمل عبير لرائحة عطرها ويتمثل أمامها رسمها الذي افتتنت به..

تبحر عبر شاطئ عينيها.. في حالة من الوجد، ولا تعلم هل هي هفوة الروح للروح وتعلق النظر بشاطئ الأسرار الذي تكسوه الرموش وكأنها مظلة السماء الشاسعة، لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم!.

هل هو الفقد للأمان.. للحنان... هي جملة من المشاعر المتضاربة..

هل هو الحب في الله؟؟...

الحب في الله شيء جميل، والأرواح نقية طاهرة تتحد في الأفق لتنشر الخير وتبذل التضحية بثبات وقوة وإخاء...

ولكن... مضت أيامها متردية حتى انشق ثغر الصباح ذات يوم ففتحت عينيها الملأى بصور سارة وروحها فلا تسمع غير صوتها ولا ترى غيرها..

كانت هناك طرقات خفيفة على الباب بعد أن ذهب الجميع إلى مدارسهم.. توجهت والدتها وفتحت فدلفت من الباب فتاة علمت منها بأنها «سارة» زميلة هيا..

رحبت بها وأدخلتها على ابنتها التي ما إن شاهدتها حتى شهقت.. ثم شهقت فغابت عن وعيها لثوانٍ تم أفاقت فكانت تتهلل بالبشر ودبت

الصحة في محياها، فرحبت بسارة أحسن ترحيب، وكانت عبارات العتب تمتزج بالسعادة لرؤيتها...

شفيت «هيا» من مرضهـا تماماً وعادت إلى جامعتها؛ فكان والدها قد تكفل بإيصالها بعد أن جهدت والدتها لتحويل دوامها إلى المسائي حتى لا تكون حجر عثرة بطريق ابنتها وتأخيرها عن موعد محاضراتها...

مضـت الأيام وهيا تـزداد إشراقاً بـل وحباً وتعلقـاً بزميلتها «سارة»؛ فتمنت أن يجمعهما بيت واحد..

وكـــان ذات يوم.. أن ترجلت من السيارة في الوقت نفسه الذي وصلت بـه سارة للجامعة فالتقتا عند البوابة، وسارة تلتفت وراءها تسألها: من أحضرك إلى هنا؟.. إنه في منتهى الأناقة هل هو أخيك أم والدك؟..

لم تتأخـر نزعـة الأنانية وشـرارة الجحـود في ذات هيـــا وبادرت بقولها: إنه أبي وهو من خيرة الخلق، وهو إنسان عصري.. قد تزوج أمي وهـو في سن صغـيرة، واسترسلت بذكر محاسنـه وصفاته الجميلة مما جعل سارة مندهشة..

فكرت هـيا ووجدت الحل في أن تضمن قرب سارة بجانبها..

إنه أبي، سأصف له زميلتي وأحاول تسهيل مهمة الارتباط فيما بينهما...

وبدأت بسرد صفات زميلتها وجمالها وختمتها بإعجابها بك ؟!.

كان مستغرقـاً مشـدود التفكير بالقيادة، إلا أن كلمـة ابنته قد أفاقته، فالتفت إليها يسألها عن سبب كلامها هذا!!

وقاطعته بقولها أنت لـن تفعل جرماً حين تفكر بالارتباط بها، وهي لن تمانع، أما بالنسبة لوالدتي فلن نخبرها الآن!.

توالـت الأيـام وهيـا تشعل فتيـل الحمـاسـ في قلب أبيهـا لخوض هذه التجربة الفاشلة ولم تفكر إلا بنفسها فقط..

أمـا والدتها.. أما ذلك الحضن الدافـئ والنفس الرقيقة لم تأخذ من وقتها كثيراً، فقد سلمت بالأمر الذي قالت بأنه لا مناص منه..

والافتتان في هذه الدنيا الفانية يجعل المستحيل ميسراً واللامعقول ممكناً!.

وللأسـف.. ألغيت مشاعر وطعنت قلوب حتى تلاشى كل نبض يوجد به قطرة انتماء..

تم كل شـيء بصمت وهي تنتظـر عودة والدها من شهـر أوهم زوجته بأنـه فرض عليه، ولم تعلم وهي تلملم أغراضه الشخصية وتهيئ له كل ما يحتاجه.. إلا أن في قلبها وخزاً شديد الحرارة وكأنه نصل سيف انسل للتو من غمده!!

كيف لنا!..

أتكون لحظات السعادة هي هبة الشقاء في أعمارنا المجروحة؟.

انقضى ذلك الشهر وهي تأكل أعصابها وكأنها ترميها في الهشيم، وتراها وهي تدور حولها تصفق بيديها الحنونة في حذر من مفاجآت الزمن!.

لم تتخيـلْ لحظـةً واحدة أن تكـون الطعنة السامـة.. القاتلة من قطعة كبدها التي جاهدت كي ترزق بها.. ضحكت بتهكم..

لملمت بقايا ملابسها التي لم تعد تعنيها فمعظمها كانت باختياره هو...

وارتداءهـا كان يعجبه هـو.. وكانت سعيدة بذلـك.. بل كانت تنظر إليـه كما ينظـر الإنسان إلى سمـاء صافية في لحظـة أرق أو كربة وهو يتمتم بالدعاء..

إلا أنهـا لم تتوقـع أن يكـون خلـف صفحة هـذا النقاء كتل مـن الغيوم المشبعة بالمؤامرة..

رحلت غير عابئة بأي شيء.. بأي شيء..

حتى «هـيا».. هيـا، حبة قلبها قد لفظتها بجانب من اختارت وهي مطمئنة.. صارت سـاكنة.. هـادئة كأنما تصغي إلى الحرب الضروس بداخلها..

تبتسـم للوجود.. مراعاة لمن حولها فقط، وهـي تعيش عالمها الحقيقي بسرية تامة.. لن تسمح لأي مخلوق مشاركتها إياه..

أمـا هـيـا فقـد جنت ثمـرة خطئهـا واندفاعهـا، وكان أولهـا تركها للجامعة مرغمـة من أبـيها بأمر من زميلتها وزوجـة أبيها التي انقلب حبها عداوة ضارية..

دارت برأس هـيا لحظات والدتها وبذلها وسخائها دون محاسبة...

رجعت إلى نفسها فكرهتها وخاضت بأعماقها مصاعب عديدة مصرة على تعذيب ذاتها كارهة لروحها الجاحدة...

وبكت حتى أخذ منها البكاء مأخذاً فنامت مكدورة..

ومازالت «هـيا» تعمل خادمة لدى من أحبتها وضحت بوالدتها لأجلها، بعـد تنازلها عن قرارها سمحت لها أن تعود إلى الجامعة، وكانت تتعب في التوفيق بين دراستها الصعبة وبين أعمال المنزل، وزميلاتهن في دهشة من النفور بعدما كان محبـة، ولم يتوقعن للحظة واحدة أن ترتكب هيا جريمةً شنيعـة في حق نفسهـا وفي حق والدتهـا حين طعنتها بخنجـر مسموم من خلفها..

وهي في أمان الله!!!

ذكريات لن تعود ..

كان بهو المنزل يعج بالداخلين والخارجين في حركة تنم عن فرحة وسرور ونعم..

فاليوم هو زفاف «هيلة» الفتاة اليتيمة على أحد الأشخاص المكافحين، الحدث الذي أدخل البهجة في نفوس الطيبين.. الذين تمنوا لهما حياةً تملؤها السعادة والاستقرار..

يتم الزفاف عبر بوابة الأمل لعل الأيام تبتسم لها بعد إدبار، ولعل قطرات من المطر تهطل فتزهر أرض حديقتها بعد إجداب..

وتمضي الشهور، تليها سنوات ولا توجد هناك بارقة أمل في ثمرة تروي عطش والدته المشفقة المنتظرة..

كانت الزيارة للطبيب هي القنبلة الموقوتة التي انفجرت في قلبها؛ فحطمت زوايا رطبة تغذيها معاملته وحبه ولطفه معها عندما أصرت والدته على تزويجه بأخرى وبأسرع ما يمكن حتى ترى أحفادها قبل أن تموت!.

دخل عليها ذات ليلة يخبرها بما تقرر...

يحكي لها أخباراً عرفتها قبله، وتسربت إلى مسامعها فعاثت بمشاعرها لترسم لها لوحة درامية لديار خربة قد شكلت منازلها ريشة الحرب القاسية، وغلبت على ألوانها الخطوط الحمراء القانية..

قال لها: أنت حبي الأول والأخير.. أنت مالكة قلبي ووجداني، ولكنها رغبة إنسانة تولت تربيتي بعد أن خرجت أحبو على الأرض بلا أب أو إخوة، وقد وهبت سنوات عمرها الجميلة الغضة لي وحدي.. سارت بي إلى الأمام تحملني فوق صدرها بيد وتعمل باليد الأخرى حتى غدوت رجلاً، فحط الزمن بها دون شباب أو قوة؛ وهذا أقل ما أفعله من أجلها.. أحنت رأسها إجلالاً لكلامه الكبير فنزلت قطرات دموع حتى باتت تهطل...

وهي ترجوه بألا يقسو عليها... بألا يهملها أو يجرحها..

فما أصابها من حرمان هو بإرادة الله..

قالت له.. فتحت عيني على الحرمان عندما توفي والدي، وتزوجت والدتي بعده فكان زوجها بمثابة الجلاد القاسي؛ فهو يتلقط أي هفوة تصدر من طفلة لم تكمل عامها السابع لينهال عليَّ بعقاله بحجة تأديبي..

مما أفقدني شخصيتي وهربت ثقتي بنفسي فبدت كورقة قد جف نصفها فوق غصن ميت تخاف السقوط..

كنت كثيرة التردد.. سريعة الخوف.. حتى لاحظت جدتي ذلك فأصرت على أخذي لديها وتربيتي..

فكان كل شيء في عالمي ممنوع؛ فالبنت لا تخرج أبداً وتكتفي بحد معين من التعليم حفاظاً عليها..

وأهم بند في حياتها إجادة الأعمال المنزلية، حتى ظهرت في حياتي فجأة، فكنت الفارس الذي انتشلني من براثن الأوجاع، وفتحت لي الآفاق، فأكملت الأهم من تعليمي وأنا أتمنى لك كل خير وأدعو الله أن يديمك بجانبي.

وما إن استقرت أوجاعي وقررت دفنها، حتى استيقظ الجرح وصحوت اليوم لأصطدم بذلك الجدار الخراساني...

جدار الحرمان، فأرجوك لا تتخلى عني...

فأوجاعي باتت رطبة ندية أنعشتها الأحداث من جديد؟.

مسح على رأسها وهو يعدها... وهو يعدها...

في ذلك الصباح أفاقت... بل انتفضت من صمتها فلم تكن نائمة... كان لغرفتها زاوية خافتة الإضاءة، انعزلت بجانبها وقد رمت برأسها الصغير على ركبتيها ترقب الزمن وما ينبلج به صباحها..

لليوم الثالث على التوالي... كان هذا وضعها حتى تسربت خطوط دقيقة جداً عبر ناصع البياض في عينيها المرتوية.. فشكلت شاطئاً ثائراً تتلبدّ فيه الشباك، وكل واحد من أصحابها يحاول نيل أكبر عدد ممكن من الأسماك...!

نزلت إلى مقدمة الدار، وعملت القهوة ووضعت أحسن أنواع التمر والحلوى وقدمتها لوالدته وهي تجاهد لحظات الفزع مما سيحدث بعد قليل من دخوله وهي معه..

كانت وجلة... قلقة... قلق يشوبه إرهاق... وألم... وعزوف عن كل شيء... كأنها نقش... أو خربشة أو حتى ترنيمات ناعمة تسمعها على الباب... فزعت...

انتصبت واقفة كأنها نخلة...

وبعزم حاولت اصطناعه توجهت نحو الباب.. فتحت بسرعة!

هـل هو الشوق له... هل هي الرغبة في رؤية التي اختارها أماً لولده...

ووجهاً لوجـه.. رأته أولاً فكـانت عيناه تحمل هـماً... وشوقاً... وشفقةً عليها. اتجهت نحوها... رأتها، لها نظرات تعالٍ... وازدراء!

رحبت ودخل الجميـع، وأدارت القهوة عليه وعليهـا وعلى والدته، والكـل مبتسم وهي تحترق... تنتهي... تبكي لآخر لحظة ولكن... بالداخل فقط...

توالت الأيام والأشهر والكل مترقب حتى تحقق المنتظر.. «هند» حامـل..

وبدأ شديد العذاب في عالمها المتلاطم؛ فكان عليها خدمتها... ورعايتها والحرص على عدم حركتها كثيرًا... حتى يرضى هو عنها...

حتى يبتسم لها ويدعو لها هي...

اكتمـل نصاب الحمـل ووضعت... وضعـت طفلاً جميلاً تهفـو نفسها لرؤيته أو ضمه..

ولكـن.. لم تكن تتصور أن تحرم حتى من رؤيته خوفاً عليه..

تساءلـت.. هل يمكـن أن أتسبب بـأذاه، بل بالعكس، أتمنـى أن أضمه وأعتني به وأخدمها برعايته..

ذات يـوم كانـت والدتـه في الخـارج لزيـارة والدتهـا بالمستشفى وقد اصطحبها أخوها وتركا الطفل عند جدته.. كـان يلهو.. ينـاغي.. ينظر إلى السقف وكأنه يسبح..

كـانت هي في الخارج لشراء بعض اللوازم..

عادت قبل عودتها وقد كانت والدة زوجها تصلي والطفل لوحده بجانب القهوة والتمر ورائحة الهيل والطفولة...

أقبلـت.. فانشـرح قلبهـا وضمته علـى صدرهـا وقبلته وقبلـت أنامله الصغيرة وهي تذكراسم الله عليه أن يحفظه لوالديه..

دخلـت والدته وأخوها، فصرخت بأعلى صوتها وهي تولول حتى انقلب ضحـك الطفل إلى بكاء، ووسط دهشة أخيهـا صرخت بها.. اتركي طفلي اتركي طفلي.. وجذبته من بين ذراعيها.. حتى توارت إلى الداخل..

بعيـداً عن لحظات الحـرج والشعـور بالدونية واللاشيء أمـام إنسان غريب عنها..

تلبستـه نظرات السخط على أختـه القاسية، فعنفها وحذرها من مغبة تصرفها هذا وخرج غاضباً منها!

حضر زوجها وهي تنتظر تصرفه هو... بعد تأنيب والدته لها وكأنها قد ارتكبت جريمة شنـعاء...

وحضـر.. كـانـت ترقبـه بعين غريقة وكبـد جريحـة... كـانت تنتظر قـراره.. فإما أن تسير الحيـاة بهدوء... بحفظه لحقهـا وصيانة كرامتها التي ابتذلت كثيرًا و إمـا... و إمـا ؟

نظر إليها غاضباً وهو يقول: ليـس من حقك مضايقتها والاعتداء على حق من حقوقها و...

وقبل أن يكمل فاضت مدامـعها فانطلقت الدموع مجازفة وهي لا تقوى علـى مخاطبته، تذكرت حـين قالـت لـه: أخشـى أن ينقسم قلبي لجزأين

فأرفض الجـزء الأكبر منه الذي يضمـك بعد أن ينهكنـي التعب وتتعطل أنفاسي بهجرانك وجحودك..

وهـا هي تمر بـما أخافها.. ها هي اليوم وفي هذه اللحظة بالذات تضج مشاعرها الملتاعة ويبكي قلبها الحزين للفقد؟

في فجـر اليـوم التـالي لملمـت أشياءها البسيطـة، ولم تنسَ كينونتها المفقـودة؛ فقد جاهدت لربطها وسط إحـدى الحقائب حتى لا تضيع منها أكثر فتبيت خرساء وتصحو خرساء؟!

وقفـت كأنها شراع منسي وسط بحر مهجـور منذ زمن، تحمل أمتعتها وتزج بها في مؤخرة السيارة ولا تعلم أين تذهب، فليس هنـاك غير جدتها وخالها وأولاده...

انفصلت.. انقطع الوصال.. خانها الفارس حين جذبها فتعثر وسقطت..

وسقطت وهذه المرة كانت فوق الرمـضاء القـاتلة؟.

عـادت إلى المعمعة من جديد وهي تحيي ليلها باللجوء إلى خالقها وهي تتذكـر قـول صديقتها لها: التجئي إلى الله.. التقـي خالقك فهو ينزل إلى السمـاء الدنيا في أواخـر الليل ويقول: (هل مـن داع أستجيب له؟ هل من مستغفر أغفر له؟ هل من تائب أتوب عليه؟حتـى يطلـع الفـجر)..

واستجاب.. سبحانه وتعالى.. استجـاب حين علمت صديقتها بما آلت إليـه.. كانت تتصفح إحدى الجرائد.. يوجد إعلان صغير في حجمه كبيـر في معناه..

مطلوب حاضنات لأطفـال أيتام، يوفر لكل أم سكناً بحراسة مشددة، يشـترط الأمانة والرحمـة والنظافة، وتتمتـع كل أم براتـب شهري ودورة

علميـة.. وهي مسؤولة عن ثلاثـة أطفال ابتداءً من السنـة الرابعة ونهاية بطفـل صغير بالأشهـر.. قفزت.. نحـو الهاتـف.. أدارت القرص فاجأها صـوت.. طلبتهـا.. حدثتهـا وكأنها تـأكل الكلمات محاولـة إيصال الخبر بأسرع ما يمكن..

انفـرجت أساريرها.. بكت ودموعها تتساقط..

قـالـت لزوجة خالها الخـبر.. ولخالها.. وافق بعـد أن تأكد من مأمن السكن.. بعد أن تأكد من سمو رسالتها العظيمة..

عـاشت حياتها الجميلة فأشرقت الدنيا بعينيها وهي تودع أطفالها..

رقية.. وفاطمة.. وأحمد.. صباحاً إلى الحافلة للذهاب إلى مدارسهم.. وتعـود أدراجها لتهيئة المنزل والغذاء لهم.. وهم ينعمون بدفء حنانها.. وقلبهـا الكبير الذي يحمـل.. جـراحـات... وأوجـاع... وذكـريات.. لـن تـعود.. لـن تعـود..

المطر المسافر..

أطلقـت ساقيها للريح تخطو بسرعة رهيبـة... نظراتها مشتتة والقلق يتفنن في رسم خطوطه عبر تقاطيع وجها المرهقة، تترقب هذا الكم الهائل لعله يقل ولكن !.

لم تستطـع الانتظـار... حاولـت خوض المعركـة مع المجاهـدات بما تبقـى لهن مـن آمال، كانت في يوم ما ترفرف عـبر أحلامهن الوردية... دست جسدها الهزيل داخل الزحام حتى التحمت الأكتاف بعضها ببعض محاولـة الوصول إلى القاعة الكبرى، فهناك آخـر خيط يمكن الإمساك به...

ما هي إلا لحظات حتى أطل وجه مرهق يهتف: دراسات إسلامية..؟.

وارتفعت الملفات الخضراء العتيقة تتزاحم للوصول إلى فوهة القارورة، وبدأ الصراخ وطلب الإغاثة...

صوت من الخلف «نحن صائمون ارحمونا وآخر... أنفاسنا تتقطع».

كانت عبر الأمواج مرة تصل إلى الباب وأخرى تتراجع حسب قوة الدفع الهائلة التي تتلقاها من الخلف.

هنـاك ظل قريـبٌ من تلك المشاهد يحاول ترجمـة ما يجول بداخل كل واحـدة تجاهـد لنيل هذا الشـرف... فمن يدري لعل هـذا الحماس وهذه الهمة تنتج إبداعا أو تنظم أسرة... من يدري!.

لفت انتباهها صوت قادم، إنها لواحدة بإحدى يديها ملف وعلى الأخرى طفل، ووراءها صوت بكاء الطفل الآخر أزعجه هذا الجو وهذه الوجوه !.

كانت تجاهد بأطفالها حتى اقتربت منها عاملة آسيوية سلمتها الطفل الأول وأمسكت بالآخر وغمست نفسها داخل هذا الموج !.

أطلَّ الوجه المُرهق من جديد... عربي... عربي تشابكت الأيدي بالملفات في قتال عنيف، وتم هضم جزء منها داخل تلك القاعة.

تقدمت تلك الأم المجاهدة ولكن هناك ما يشغلها... يقلقها، إنه صوت طفلها وهو يستنجد «ماما أنا خائف»!!

التفتت باتجاه مصدر صوته ثم نحو عنق الزجاجة... صرخت ملبية نداءه، وانسلت من تلك الأمواج... احتضنته... وقبلته وانصرفت.

وهذه أخرى تسير يتلبسها الارتباك، تطبق بيديها الاثنتين على الملف في فزع... اقتربت منها وبكلمات بعثت بأوصالها الدفء... شعرت بالارتياح وهي تحاول التعبير أمام من استوقفتها عن مدى الاطمئنان لها، والإحساس بأنها تريد أن تحكي لها كل ما مر بحياتها من ظلم وإجحاف... فقالت: تزوجته ورضيت بالحياة معه ومع أسرته المتواضعة مراعاةً لظروفه الصعبة...

كنت صغيرة ومرحة ومتفوقة، وأتى من يطلب يدي من طرف قريب لي له محاباة عند أبي؛ فوافق دون علمي... لم أكن أعي أي شيء مما يدور حولي من أحداث، واقتنعت بكلام زوجة أبي وهي تصف لي حجم السعادة التي سأحياها بجانبه ووالدته وأخواته... وتم كل شيء، ومضت الإجازة

وسـط انبهاري بأجواء الأسرة الجديدة وكلمات المديح التي نلتها منه ومن والدتـه؛ ولكن لم يدم الحال علـى ما هو عليه، حيث تغير كل شيء بمجرد أن طلبت منه أن يوفر لي مستلزمات الدراسة فلقد تبقى أسبوعان.

كان القرار الذي اجتمعوا لأجله هو محاولة الحيلولة بيني وبين صفوف الدراسـة التي تعلقت بها منذ الصغر، وكانت ملاذي الوحيد بعد الله، وتم لهـم ذلك حيث أحسست بحركة غريبـة أفزعتني وأدخلت الرعب في قلبي فما هذا... كان الجميع فرح...

أنـا ذات الرابعة عشرة الطفلة البريئـة أنتظر طفلاً يبكي ويضحك بل ويحبو ويناديني «بماما» ؟!.

أفقت من المخدر وكأنني بطوفان فضيع، أرى الممرضات حولي يبتسمن في تعجب مـن هذه الأم الصغيرة، وزادت دهشتـي عندما أقبلت إحداهن تحمـل طفلي وهو يبكي، لقـد أصبت بحالة هلع، وألم شديد في بطني الذي مازال منتفخاً وحوله ربطات وشاش كثير وقطرات حمراء كانت لدم خرج عبر الجرح..!!!.

لقـد بكيت بحرقة... تمنيت أن تأتي أمي من عالم المجهول الذي رحلت إليـه منذ زمـن لأغرس رأسـي الساخن في صدرها وأتنفس عبق عطرها الحنون. وبكيت وبكى من حولي من الواقفات وأبعدن طفلي عني!.

وتمـر الأيـام وأحـاول التأقلـم مع وضعـي بعـد أن رفضت زوجـة أبي استقبـالي في منـزل أبي بعد رحيله، وجلست مـدة تعبي تحت رحمة والدة زوجي وسيطرتهـا... تذوقت مرارة الوضع بصمت، وتكررت ولاداتي على

هـذا المنوال نفسـه... حتى صار عندي حصيلة مـن الطفولات، وتحطمت آمالي، فجمعت أحلامي وطموحاتي وأطبقت عليها في صندوق عتيق.

وأتـى يوم كان الفاصل السعيد في حياتي، وخرجت ونثرت ظفائري من جديـد بفرح طفولي، وتوجهت لصنـدوق آمالي حيث أشرقت أمام ناظري الشمس من جديد، ودبَّ الحماس في أوصالي فبكيت أمامه ورجوته أن يسمح لي بمواصلـة ما تبقى لي من مراحـل، ووافق بعد جهد على مضض بشرط أن يكون سراً بيني وبينه وألا يصل لوالدته وأخواته. و وافقت وتم استقبال أوراقي وأتممت ما تبقى لي، والآن لي هذه الأمنية بعد أن تراقصت أحرفي عبر «الجزيرة» وكان لي شرف إشراقها عبر صفحاتها. كنت كمن حصلت علـى دنيا جديدة وعالم مليء بالأمان حتـى تلبسني نوع من الفخر فدنوت مـن مرفـأ ذكرياتي؛ ووجدت زورقي، ولو أنه متصـدع بعض الشيء إلا أنه استطـاع حملي، وها أنـا استقلّه عبر أمواج البحـر الهائج وقطرات المطر المسافرة التي تتساقط على رأسي المحموم فتغسل آثار دموعي وتسقي قلبي لتنجلي همومي، وأنظر عبر الغروب بانتظار إشراقته من جديد.

سر اللافندر...

جلس خلف المقود وفي صدره صراع مرير..

شريان الدم المنطلق نحو قلبه لا تستقبله العضلات.. كأنه العزوف عن كل شـيء، أحس بشيء من الاختناق، ها هو الطريق القصير ينتهي به إلى قاعة أفراح كبيرة جداً..

شاسعة جداً بحجم المساحة التي صارت بينه وبين من كانت في يوم من الأيام رفيقة دربه.

عائلته.. بل قبيلته كلها لا تعترف بشيء اسمه مشاعر!!!

توقفت السيارة الفارهة التي كان يقودها، ونزلت والدته وأخواته بينما طلـب منه والده النزول بقسم الرجال جنبـاً إلى جنب وهو يشيد برجولته وجسارته للتراجع عن رفضه حضور حفل الزفاف.

جلس بين الموجودين..في المقابل له جلس العريس..

تفحص قسماته.. وجد أنه في العَقْد الخامس من عمره..

لم يكن بحاجةٍ لمزيد من الأطفال، فقط يريد السكن إلى رفيقة تشاركه بقية ما كتب له من حياة..

هـوت نظراتـه صوب الأرض وهو يتمتـم بأسى ليتنـي لم أَنْصَعْ لأوامر أحد.. ليتني لم أستجب ورضيت بقدري..

لمــزه والده بحدة وهو يعلم بقرب انهيــاره حتى استقامت جلسته ورسم على محياه ابتسامة باهته.

في القســم الآخــر من القصر دخلــت والدته وأخواتــه، تفاجأن بموعد «الزفــة» فرأينها فلة وســط حديقة زهور تخطو على وجل، تتلبسها نظرات الخذلان.. والإحساس بالعتب وأشياء أخرى...

اصطدمــت بنظرات واحدة من أخواتــه وكانت أقرب الناس إليها وهي التي سربت خبر نتائج التحاليل بأنها لا تستطيع الإنجاب أبداً، وأن العائلة تضغط على أخيها للانفصال.

توقفت برهة..

وسط الضجيج.. وسط عتمة البخور الذي ملأ الجو وحوَّله واقع أحلام متضاربــة معكــرة يشوبها نوع مــن الاستجداء... الاستغاثــة، لم تسمع أي صــوت خارج عن ذاتها أبداً كأنهــا لحظة سكون وهي تبحر... تتعمق بأيام سابقة في حياتها كأنها الآن..

إلا أن الأولى كانــت بهــا فرحة مستبشرة، تتمنــى اللحظة التي تجمعها بمن أحبها واختارها، وأحبته وأصرت على انتظاره، ولكن..

لم يكــن يخفى حتى على الجبال الشاهقــة ذلك الزفاف الأسطوري في تلك الليلة.

وكان الــكل مبتســم.. فــرح، يدعو لهما بالوفــاق التام، ولكــن يبدو أن الأماني غالباً ما تتحول إلى سراب،، أحلام وردية نهرب إليها عبر غفوتنا لنعيش لحظات من اللاوعي.. ونحن نتقلب بين ردهاتها ودهاليزها..

حتى غيومها ورشقات المطر فيها تلك الليلة كانت بالنسبة لهذا الفرح كشاهد عيان على السعادة.. !!

كانت كمن يحاول عمل «بروفة» للّقاء الجديد القادم.. وتساءلت..

كيف يمكن اصطناع المشاعر... كيف أستطيع ألا أظلمه فقلبي لا يمكن أن ينتزع من بين أضلعي لأيٍ كان، فقد أحببت لمرة واحدة، لن تتكرر أبداً وهذا هو الإخلاص.. هذا هو الحال وأنا بقرارة روحي وجوانبها وزواياها أقر بهذا الحب الشرعي فكيف بأخي يحثني بإصرار على الخوض بغمار الحياة وأن أحب وأخلص.

أنا لا أستطيع أن أصطنع حتى وإن انفصلت عمن كنت له في يوم من الأيام زوجة! لم يوقظها من التضاربات المنتشرة في كيانها غير لمسة ندم ودموع تسربلت رغماً عنها..

إنها لوالدة زوجها السابق وهي تبارك لها طريقها هذا..

شهقت وتابعت المسير حتى استقر بها المقام على الأريكة الوثيرة..

تعالت الدفوف، واستعرض أمامها زمرة كبيرة من السيدات أحلى الرقصات، وكأنها على يقين تام بأنهن لا يعلمن ما يختلج بأعماقها من غربة..!!

دارت الأيام وحاولت التأقلم مع حياتها الجديدة بعدما استلمت طفلين هما بقية الحصيلة السابقة لزوجها قبل رحيل زوجته..

كانا هما سلوتها وجل اهتمامها، فأحسنت إليهما محاولةً نسيان الماضي في حياتها..

لم يكن زوجها ينسى لها فضلاً وهو يرى أطفاله وقد أشرقت وجنتاهما بالصحة والسعادة، فأغدق عليها من الحنان والرعاية بما جعلها تحاول عمل ما يسعده..

أما هي فقد كان القدر يخبئ لها مفاجأة لم تكن في الحسبان عندما كبر الطفلان وصارا رجلين.

دخل عليها ذات يوم يخبرها بعزمه على تزويجهما بمن اختارهن هو وسمع عنهن من أخلاق والتزام..

استعدت للذهاب؛ فكان عشاء ذات يوم اصطحبها وهو لا يعلم شيئاً.. ودخلت منزلاً فخماً تنتشر في حديقته أنواعٌ من الأزهار برز في أكثرها نوع معين كانت بالسابق تحبه ويحرص زوجها السابق على جلبه من مناطق بعيدة حتى إنه جاهد لزراعته لإرضائها.

أدخلتها خادمة أنيقة إلى بهو المنزل وجلست على أريكة تنتظر أصحاب المنزل، إلا أن في قلبها ناراً تزداد اشتعالاً وألماً وحزناً ممزوجين بغربه فظيعة.. شيء.. إحساس لا تعرف معناه..

لم تستطيع تفسير ذلك إلا عندما برزت لها قسمات عتيقة لا يمكن نسيانها، إنها والدة زوجها السابق..

ارتبكت.. سلمت.. بكت رغماً عنها وهي تعتذر بأنه ربما أن زوجها قد أخطأ بالمنزل..

لحظات ودخلت فتاتان في سن واحد لهما الملامح نفسها يشوبهما نظرات التعجب وهما يريا جدتهما تبكي وتلك السيدة تبكي..

عندمـا علمت هي بأن والدهما قد رحـل بعد زواجه من إحدى الفتيات بأشهـر... أصيب بهزال وضعف فصار له سكنات بعد زفافها ورحيلها عن المنطقة، وكانـت سلوته الوحيدة هي تلك الحديقـة الغنية بالأزهار، فكان يطيـل النظر إلى نـوع منها حتى توقظه قطـرات الدمـوع المتساقطة على وجنتيه وهو يندب حظه، ويتمنى أن تعود رحلته منذ بدايتها ولكن...!؟

وتمضـي به الأيـام فيلزم الصمـت ويتبين بأنه يعـاني مرضاً لم يمهله كثيراً فتوفي تاركاً بأحشاء زوجته طفلتين.

كتب الله بأن تكونا من نصيب هذين الشابين..

تم كل شـيء وهـي في كل لحظة تدخـل بها هذا المنـزل تخرج من بين أعماقهـا آهـةٌ جريحة وهي تنظر إلى هذا النوع مـن الزهور ولا يعلم سره بعد الله غيرها هي فقط.

عاشـت بقيـة عمرها تتقلب بين أنواع مـن الذكريات بعد رحيل زوجها واحتواء أولاده وبنات زوجها السابق..

وفي كل يـوم كانت ترى قسمات تثـير أشجانها بين ماضيها الذي رحل وحاضرها الذي يتجدد في كل لحظة..

مرارة الصمت..

كان تسلل الشمس في ذلك الفجر مختلفاً تماماً عن أي صباحٍ سابق، فقد كانت خصلاتها الباهتة.. الخفيفة تنطلق بجنون محبط كأنها تبيِّت خبراً غامضاً.

مدينة «......» تقف شاحبة وهي تودع شهيدة العادات ؟!

أطل ظل «سارة» تتلبسها حالة من الذهول واحتقار الذات وهي ترى الرجال يحملون ألواحاً من الخشب وقد تراخى عليها جسد هزيل يحكي قصة...!

في المقابل وقف صامت يتجرع الألم وحده والحيرة وهو يراهم يبتعدون محاولاً إظهار الرفض؛ فالتي معهم هي له وحده...

له حتى لو كانت مجرد جسد بلا روح.. بلا نبض أو حياة!

أرعبه ما تساقط من دموع على وجنتي شقيقته «سارة» وكأنه ينصت.. يستمع القصة منذ بدايتها: في تلك القرية الصغيرة التي تبعد عن مدينة «......» 90 كم كانت الأمور تسير فيها على ما يرام.. طبيعة خلابة وأناس طيبون... وجو مليء بالبهجة.

في أطراف القرية انتصب منزل العم صالح وبجانبه منزلُ أخيه عبدالعزيز وقد اقتسما أرضاً زراعية شاسعة المساحة تجود بكل ما يخطر على بال إنسان من ثمار...

وكان للعم صالح وأخيه أربعة أطفال لكل منهما اثنان نورة وعبدالله وسارة وأحمد، جمعت الأطفال الأربعة كل معاني اللعب والمرح والنشوة..

كبر الصغار إلا أن «أحمد» بدت عليه علامات التخلف ولو أنها بسيطة إلا أنه في لحظات كثيرة لا يعرف من أمامه فكان يضرب ويدفع ويهرب!

أكمل الأولاد العشرينيات؛ فكان لزاماً على والديهم النظر في مصلحتهم خاصة بعد أن لا حظ أبو عبدالله تعلق ابنه بابنة عمه سارة..

ومما ساعد على الاستعجال بإتمام الارتباط ما يتشبع بهذه القرية من عادات قديمة وهي أن البنت لابن عمها رضيت أم لم ترض، فلا يجرؤ على خطبتها أي شخص إلا بعد تنازل ابن عمها عنها وكأنها سلعة!

لم تسع الفرحة سارة وهي تسمع القرار من وراء الباب، إلا أن نورة التي شعرت بما يشعر به المحكوم عليه بالإعدام شهقت رافضة بأعلى صوتها، فلن تقبل بأحمد زوجاً لها أبداً..

فابن عمها أحمد ليس مثل أخيها عبدالله، كانت تخاف أحمد دائماً، فهو عبارة عن شخص متقلب المزاج، سريع العصبية، عريض المنكبين كبير الوجه، دائماً ما يفرد عضلاته بوجه الجميع!

بكت نورة بكاءً مرّاً وهي ترجو «سارة» بأن تساعدها في منع هذا القرار، ولكن سارة وقفت بإصرار وهي تقول لا تحرميني من أمل عشت أتمنى تحقيقه في كل اللحظات، ويجب عليك التضحية.

في ذلك الصباح الباكر فتحت نورة عينيها وقامت بفتح نوافذ غرفتها الفارهة، وأطلت على الحقل الشاسع الذي يزخر بخضرة تفتح النفس لمباهج الحياة.. إلا أنها صارت تنظر لكل هذا الجو بنوع من اللامبالاة!

حتى زقزقة العصافير ترجمتها لقصة حزن عميقة تتحدث عن إنسان زج به بين قضبان الحديد ظلماً.

وبـين متاهات الألم صارت كل يوم تركـز بنظرها صوب القادم، فربما يكون القادم هو سبيل الخلاص من الدنيا بخطوات هدها الخذلان والشعور بالرفض لكل لحظة يعيشها بجانب مخلوقات استطاعت بطرق عجيبة أن تثبت عليه تهمة لم يرتكبها.

كانت نظرتها للعالم كلـه بأنه بحر هائج شاسع يجمع أنواعاً كثيرة من المخلوقـات وكلها لها هدف واحد هـو العيش.. العيش فقط دون النظر لأي شيء.. فكبيرها يأكل صغيرها.. وقويها يطمس ضعيفها.

كانـت تطلـق آهاتها عـبر المروج الخضـراء فتصوب نظرهـا إلى تلك الشجـرة الوحيـدة وسـط الحقل،إنها تقف في شمـوخ، أوراقهـا خضراء مرتوية، أغصانها صلبة ترسو على الأرض بثبات.

لكـن ليس حولهـا أي شيء.. الصمـت يغلف المكان وهـي تبكي قدرها المحتـوم.. فالغد القادم سينهي كل شـيء بالنسبة لطموحاتها وأحلامها.. وتأملاتها.. مضى يومها مثقلاً بأنواع الكدر.

بينما ترى البشر والفرح يتلألأ من محيّا «سارة» ابنة عمها التي تخلت عنها، بل جعلـت منها كبش فداء لها ولأخيها ولم تكلف نفسها حتى مجرد الإدلاء برأيها خوفاً من تعنت أبيها إن لم يرض بأخيها زوجاً لابنة عمه!.

في المساء ألبسوه البشت...

وداروا بالبخور حوله.. بل وهذبوا شعره ورتبوه وزفوه لها ؟! كانت تجلس على الأريكة حولها أهلها وهي غريبة.. وفي نفسها كرامات مذبوحة وقلبها ينزف! قمة الألم ولحظات الضياع.

كانت لها عينان تلمعان بالحياة، شفاه جميلة طُلب منها أن تبرز من خلالها أسنانها حتى ولو كانت ابتسامة خذلان... حتى وإن كانت تعبيراً عن المرارة، فقط عليها أن توحي لمن حولها بأنها في قمة السعادة بينما هناك حرب ضروس تعبث بكيانها!

جلس بجانبها بعد أن صافحها والتفت إليها وهو مبتسم محاولاً تذكيرها به عندما كانوا صغاراً وكيف أنه ضرب ابن الجيران «فهودي» عندما حاول مداعبتها بلعبته الجديدة فأوقفه عند حده على حسب تعبيره بأن أفقده إحدى عينيه! وكم بذل والده من غالٍ حتى استطاع إقناعهم بالتنازل مقابل مبلغ كبير من المال!

قال لها: أتعلمين أن «فهودي» الآن طبيب عيون وقهقه بملء فيه حتى انتبه له الحضور !.

دقت الواحدة ليلاً فنهض ونهضت، زفا إلى منزلهما وسط الدعاء من والدته له والدعاء من والدتها بأن يكون الله في عونها على ما كتب لها من نصيب!.

انبلج النور... ليكسو ظلاً كان يراقب العصافير عبر الحديقة دون ظلم.. دون قيود... لم يكن غير ظلها الحزين.

مضت أيامها هي وسارة، فكانت سارة تشع صحة وسعادة بينما هي قد غزا جسدها النحول، وكانت مسحة الحزن قد بدت تظهر لمن حولها!

لقد تعوَّد الجميع على سماع صرخة تنطلق فجأة في أثناء سكون الليل.

كان ضعيـف الإرادة يتخبطه الهلـع.. يشعر بمن يطارده فيقفز فجأة وينهـال عليها بكل قواه، حتى كانت ذات يوم تغط في نوم عميق بعد سهر ليالٍ متواصلة.

كان ينظـر إليهـا وهـي غائبة..مسافـرة مسبلة أجفانهـا.. هاربة من واقعها المر إلى عالم من اللاوعي!

تلبسـه الشـرود وهاج.. أتتـه حالـة الألم.. هناك من يصـرخ خلفه.. يخيفه.. يوحي له بأنها ليست له.. ستهرب.. لا تحبك؟!

فينهال عليها بضربة أفاقتها للحظات ثم غابت ثانية..

جـرى راكضـاً نحـو والدتـه يستنجـد.. إنها تنـزف... حـول خديها الشاحبين دماء!

حاول الجميع إسعافها وعمـل لها ما يلزم.. غادرت المستشفى هلعة... تدهورت أكثر فأكثر، قرر عمها ومشاعر الإحساس بالذنب تعذبه الذهاب بها إلى المدينة حيث صفوة الأطباء هناك.. عرضها واتضحت؟

ورم كبير وخطير جداً يربض حول عنقها ماراً بالقلب وما حوله !

سمعـت دون قصد ما بها ! دخل عليها عمها ووالدها محاولين طمأنتها بأنه لا يوجد ما يقلق.. وجدوها مبتسمة.. مشرقة على غير عادتها...

فرحاً بذلـك، ولم يعلموا بأنها ارتاحت.. شعـرت بأن الخلاص قريب، وأنهـا سترتاح للأبد؛ فرحمـة الله واسعة، وصبرها علـى زوجها ترجو أن تجد أجره في ميزان عملها!

عكفت على آيات الله.. قرأت.. حفظت حتى شعرت بالوفاء بالعهد يقترب.. الله وعدها خيراً، ذات صباح أطبقت كتابها وتوسدت بكل ما تبقى لها من قوة يدها وغطت.. هذه المرة غطت بنوم عميق...

إلى الأبد

الجحود

كان المنزل يعج بالمعزين...

جاهدت بثقل حتى استطاعت أن تقف بصعوبة.

خطـت خطوات فسقطت وهـي ترى ابنها البكر يحـاول فك اشتباك بين إخوته!!.

جرى نحوها وساعدها على النهوض حتى توجهت إلى غرفتها وتوضأت متجهـة إلى سجادتها، فلم تزل كلمات شقيقتها ترن في أذنها: عند أي هم اتجهي للصلاة... ارفعي يديك إلى الله... «يارب».

حتماً ستجدين الحل... ستنفرج قريباً...

وإن لم يكن فستشعرين براحة القلب وسكون النفس.. بل الإبحار بكرم الله ورحمته التي شملت عباده أجمعين...

صلَّـت حتى تراخى جسدها وأطلقت لنظرهـا العنان صوب لا شيء في الوجود... وطافت... تعمقت... رحلت إلى الماضي في حياتها...

نعـم لقـد كان «يحبنـي» لا أنكر ذلـك... كان أسير جمـالي، بل كان لا يستطيع البعد عني لحظة واحدة...

وزاد فرحـه عندما بـدأت ثمرة هذا الحـب تتحـرك بأحشائي... لقد اشـترى له سريـراً قبل وصوله بأربعـة أشهر، وكان لا يـرى جميلاً يخص مولوداً حتى يقتنيه...

حتى حان موعد الولادة وكم تفهت الدنيا بعينه عندما أخبره الطبيب بأن هناك خطراً ما ربما أتعرض له والوليد، لكن رحمة الله واسعة، حيث ملأ صراخ «فهد »الغرفة ونزل يشق طريقه المليء بالأفراح.

ولم يهدأ له بال حتى دخل عليّ وقبّل يدي حامداً الله على سلامتي أولاً وسلامة طفلنا.

وكبر «فهد» وتبعه إخوانه وأخواته وكبر منزلنا..

كان لا يبخل عليّ أو عليهم بشيء، فكل غالٍ هو لنا حتى أصبحنا مضرب مثل لكل من حولنا.

ويدور الزمن! وتمضي بنا السنوات بين أتراح وأفراح، وهذه حال الدنيا..

في يوم لن أنساه ما حييت حين تبدلت حاله، فقد بدأ السهر وهو الذي يغضب إن حاول أحد منا ذلك... وشيئاً فشيئاً دبّت الخلافات بيننا، صار يسافر كثيراً... كل يوم في سفرة بحجج واهية، وكم أحزنني وكان همه على قلبي كثقل الجبل عندما راقبته فوجدته يجمع صلواته وأحياناً لا يصليها بحجة «عفا الله عما سلف»؟ وأنا أشعر بأن في قلبي وكبدي ناراً تلظى.

قال لي يوماً: سأقترن بأخرى؟! فضجت مشاعري الملتاعة وتلبسني الضياع والكدر حتى لامسني ما يشعر به المريض بمرض عضال عندما يخبره الطبيب بأنه مضطر لاستئصال كبده.

وبكيت وهو يداعبني بقوله هل تصدقين ذلك؟!.

وتدور الأيام وأنا أرجوه بألا يسافر السفرة الأخيرة لأن قلبي يصرخ... يقول له لا... لا تفعل.

لكنه قال إنها صفقة... ليته سمع حديث قلبي... ليته.

وصباح فجر حزين رن جرس الهاتف ليخبرنا بالنبأ الذي زلزل أحشائي و أصاب أولاده بحالة من الذهول.

لقد كان واضحاً ما ألمسه منه بالأشهر الماضية من عدم اهتمامه بي وبأطفاله وضجره منا... ولكن!.

كنت أهيئ الأسباب المقنعة لأولاده ولو أنني أعرف بأنها ليست كذلك.

والآن... الآن انتهى وفي قلبي صفحة حب بيضاء له... الآن يجب أن أدعو الله له بالرحمة وأن يغفر له ما جناه في حياته.

وهذه الأيام كأنها سبحة عابد أجدها تمضي «حبة ... حبة» وأنا أتقلب بين الخوف على ما بيدي من أمانة وبين القلق عليه وقد ضمه التراب بما جناه إن خيراً فخير وإن...؟.

أبكي لحالي أوقاتاً كثيرة عندما أجدني فقدته وفقدت اهتمامه بي وعطفه عليّ وعلى أولاده!!!. وكيف وصل حاله إلى هذا الشتات.

نسائم الصباح الباردة تؤرقني، وصرخة الحنين إليه وإلى صباحه الباسم المشرق... لحظات ذهابي معه إلى البحر الذي أحببناه معاً.

كانت قطرات المطر المتساقطة على رؤوسنا بمثابة عرس جميل تشهد عليه تتابع الموجات، وقد زينتها تلك الرشقات.

واليوم عندما أعيش لحظات خيالي المنطلق عبر حزني الدفين وذكرياتي الخالدة معه محاولةً تخطي أوجاعها أجد شبح «سرّه» يهجم

على فؤادي ويغرس أنيابه ومخالبه كي تتلاشى ذكراه، ولكن لا... ولكن لا هل يستطيع الدم أن يسير بلا شريان؟!

هل تجرؤ الأنفاس أن تنطلق عبر الماء؟!

لم يبق غير أيام ويكمل رحيله الشهر الرابع.

سأدعو له... سأبني له مسجداً.

تك... تك صوت الباب أيقظها... قطع عليها ما بقلبها من هموم وإصرار وعزيمة!.

- من ..؟.

- «نورة» تعالي يا ابنتي ماذا بك؟!.

- هناك سيدة تريد محادثتك؟.

هللت وجمعت لباسها حول صدرها ويديها وخرجت.

كانت «بالثانية والثلاثين» أو يزيد قليلاً.. بيضاء... شقراء، قد وجدت الأصباغ طريقها نحو خصلات شعرها.

سلمت وجلست تحضن طفلة لم تتم عامها الأول، تململت مدة ثم فجرت الموقف!. قالت: بصراحة أنا زوجة «أبو فهد» وهذه ابنته وقد كنت معه في أثناء سفرته الأخيرة، وقد عرفت بأن الصفقة تمت وأنا الآن لا أريد غير حقي الشرعي، فلن أبقى زوجته بالسر كما كان الوضع في حياته، وهذه الطفلة ابنته أتيت لتستلميها؛ لأن الطريق أمامي ولن أدفن نفسي بتربيتها؟!.

انتصبت «هَيَـا» واقفة حتى أحست بأن هنــاك بالداخل صوت ارتطام عبـث بمشاعرهـا وأحاسيسها وحتى حواسها فأوقفهـا... فلم تعد تسمع لدقائـق ولا ترى أمامها غير وشاح أبيض كأنه غيمة شتائية قارسة حالت بينها وبين الوجود.

أطلقـت زفرةً تلاها بضع قطرات مرة وهي تحمل أوجاعاً تسربلت عبر أوصالها المنهكة، لم تستطع الكلام... حتى الدموع تحجرت في حلقها وكأن أحداً يضع حول رقبتها حبلاً متيناً ويضغط عليها!.

التفتت نحو ابنتها وهي تشير إليها: إخوتك... إخوتك!.

ودخلـت غيبوبة سرمديـة لا تعرف إلى أين... ولمـاذا... وكيف حصل هذا الجحود!.

وأبحرت راحلة....

كان الغروب بالنسبة لها زائراً حميماً... وموعداً مهماً.

فقد أضفى الظلام على الجو مسحة السكينة؛ فهدأت الأصوات وتوقفت الحركة نوعاً ما..أتمت صلاتها وقامت متوجهة إلى غرفتها المتواضعة..

أغلقت الباب لتستقبلها تلك الحقيبة السوداء التي تحوي بداخلها جميع أنــواع الهموم... فتحتها لتشرق أمامها بنهاراتها الماضية فتنزع القناع من فوق وجهها فتتضح إشراقتها الجذابة وهي تتصفح تلك الوريقات القديمة المختلفة بصور وقصاصات مبعثرة!... كان هذا كنزها التي تعيش سعادتها بجانبــه.. استرجعت.. وكأنها أحداث فلـم درامي تدور لقطاته في معترك الحياة..

ها هو المنزل... خطت خطوات نحوه..

عـبر الدهليـز الممتد من البــاب وحتى المقدمــة الفارهــة، كانت تسير بثقة.. هي تلك جزيرتها السعيدة المطمئنة...

ونشوة تتجدد كلما اقتربت من أصوات طفولية وهي تعبث بمجرى للماء المتجمع من قطرات المطر الشديدة...

أدارت ظهرها...انحنت... حملت صغيرها وهي تفيض حناناً...

كانت أطرافه باردة ووجنتاه حمراوين، وفي عينيه خوف وبرد.. وأشياء أخرى لا يعرف معناها غيرها هي..

ضمته.. استنشق رائحتها فنام بنعيم..

وضعته في سريره ودثرته جيداً.

اتجهت إلى آلة الخياطة وجلست وهي تنادي على بقية الصغار بأن يكفوا عن العبث بالماء... وبدأت تخيط...

لديها عدد ليس بالقليل من الفساتين أحضرتها سيدة إليها، وكانت لعروس ستزف قريباً..

كانت تعمل على تهيئتها بأحسن حال ولم تعلم ما تخبئه لها الأيام...

كانت في قلبها فرحة؛ لمساعدة زوجها على مصاريف الحياة..

إلا أنها ممزوجة بنوع من المرارة، أتمت الخياطة بعد أيام متواصلة بلياليها.. ونهضت بثقل وهي تشعر بأن أخطبوطاً من الأوجاع قد توزع عبر أضلعها..

نامت ليلتها وهي مبتهلة تحكي له عن جمال الملابس وأناقتها!!!

أومأ برأسه وتمتم بالدعاء لها..

كان ذلك اليوم الأغبر عندما أخبرها عن تلك البرقية وضرورة سفره، فقامت وجلة.. تبتلع ريقها.. فبالرغم من بساطتها وبساطته إلا أن للحب بينهما تعابير أخرى.. أحاسيس أخرى يستطيع كل منهما إشعار الآخر بما يدور في قلبه من ارتباط وثيق.

حمل حقيبته الجلدية المتواضعة وهمَّ راحلاً، فقد وصله خطاب من عمه المريض بضرورة حضوره... مسرعاً...

وصل مركز حافلات الأجرة «الاستيشن» مكان تجمع السيارات واستقل إحداهـا، كان هـو العدد المكمل لمجموعـة تنتظر المسير، راودتـه أفكار... وسرح بعيداً وهو يتساءل يا ترى ماذا يريد مني عمي ؟

في الوجه الآخر للحيـاة كانت هي تتمم ترتيب المكان وتعمل على رعاية أطفالها وهي تبتهل إلى الله أن يطمئنها عليه.

حلَّ المساء وخلد الصغار إلى النوم، وضعت يدها تحت صدغها وتوسدت مرفقها محاولة الإطباق على خيط الراحة ولكن...

كان الخوف من الخوض في غمار النوم ...الغيبوبة... الرحيل المجهول الهوية يرعبها.. يوقظها بين فينة وأخرى.

كـانـت كـلمـا أطـبقـت أجفانها وطـارت وداعات الحيـاة من أمام عينيها تراجعت!

في الصبـاح الباكر كعـادة أهل القرية، كان مجلـس الرجال قد اكتمل عـدده بعد صلاة الفجر عند «عمـه»، وكان بموضع حفاوة وترحيب بجانب فراش عمه وهو في الرمق الأخير...

أمسك بيده وأمام الجميع قال بصوت متهالك: أشهد الله ثم حضوركم على أنني زوجت ابن أخي ابنتي الوحيدة وهي أمانة عنده إلى يوم الدين!

لم تتضـح الرؤيـة أمام عيني علـي، وهو يسمع غرغـرة الرحيل تسكن أذنيه وقد فاجأه هذا الحدث والخبر معاً...

مضـت الأيـام الثلاثة الأولى وهو في حالة لا يحسـد عليها من هم وألم وأمانة لا يستطيع تحملها ولا كيف يتصرف بها..

وتســاءل... كيف سيكون وقــع هذا الخبر على مشاعرهــا وأحاسيسها وهي التي أراها كل شيء في حياتي..

نادى على ابنــة عمه وجلس معها فوجد أنها مجرد جسم هائل يتحرك باحثاً عن أي شيء يأكله، لها نظرات حادة ومنطق غبي فرضي...

فبكى بداخله وهو يحوقل..

اصطحبها مودعاً أهل القرية وهم يدعون له، وسافر بها إلى منزله..

في المنزل... في حيث الدفء... ورائحة الأمان والإخلاص... دلف من عتبة الباب فاستقبله الصغار بفرحة عارمة...

كانــت تقف وراءهم في أبهى حلة كأنها رمز للتراث والحب الكلاسيكي الذي لا تشوبه شائبة..

ولكن... تغيرت ملامح وجههــا وارتعدت عندما لاحظت ملامح غريبة لوجه قادم يحاول موازاة جانب زوجها بإصرار وتساءلت من...؟

قالت: «أنا زوجته على سنة الله ورسوله وابنة عمه قبل معرفته بك».

توقفــت... رفعت رأســها نحوه.. ضجت مشاعرهــا.. صرخت بأقصى ما فيها مــن قوة... ولكن بداخلها... وبانكسار، صوبت بصرها نحوه حتى فاضت بحــور عينيها بمائها.. كأن أهدابها فراشــة هاربة أعاقت حركتها قطــرات المطــر.... نحو المجهــول.. منطلقة ما استطاعت مــن جهد... ما لبثت أن عادت إلى واقعها على وجل...

في الجانب الآخر حملت كتل الآلام وفرت خارج المنزل... ولكن!

هناك حب.. ارتباط لم تستطع تمزيقه... سمعت أصوات استغاثة، سكنت قلبها الضعيف فهرولت راجعة نحو مصدر الصوت !

كان لعبث طفولي يتلاعب حتى بأنفاسها المتلاحقة..

حملت كتل الهموم التي كانت أوراماً من الشجن تشبع حجرات قلبها وتسري بدمها بشكل سريع....!

عاشت أيامها وهي تتقلب بين أنواع من الجراحات والتهميش من جانبه الذي تغير كثيراً!

وبحيرة... وبعتب، أفاقت يوماً على رحيله من حياتها رحيل بلا رجعة...

وكانت وجهاً لوجه أمامها بعدما سيطرت على كل شيء.. تلفتت.. طرقت أبواب بيوتات صغيرة مازالت في بداية نموها فخافت أن تتوقف سعادتها، وارتعب قلبها فقررت البحث عن مأوى يضمها وذكرياتها بحلوها ومرها..

فكانت نهاية مطافها في إحدى الدور بين بناتها اليتيمات..كمساعدة لفن الخياطة وهي تصحو صباحاً لتعد نفسها بالمساءات المقبلة كي تمتطي زورق الذكريات.. وأبحرت راحلة...

قلوب تتنفس الحب...

انفصلت عنه بعد انقشاع الضياع، واتضحت أمامها الرؤى حين أراعتها حياته، وتاهت خواطرها بعد الصدمة...

مـا بين الرفض رفضاً باتاً لإعـادة التجربة والتزام الصمت! عندما تقدم ذلك الإنسان.

دخلت حياته.... لم ترض لها عرساً هي ووالدتها ووالدها وما تبقى من أشقاء.. «حفلة عشاء صغيرة»..

قالتهـا وهي تلملم ما بقي لها من همة... وعزيمـة خوفاً من التراجع.. تربعت على كرسي أنيق.. بسيط، تحمل على عاتقيه ثقل يدها المتلاشي...

دلف من باب البهو... التقت عيناها بعينيه رأت فيهما رجلاً ملتاعاً... أحاطت ملامح وجهه خطوط الحزن.. والحرمان.. والفقد؟

جلس... التفت إليها... بدأت تجاعيده تتمدد.. ارتاحت نظراته التائهة نحو المضي بأعماقه... تلاشى الخوف في قلبه فسكنت أوصاله الطمأنينة.

رحلت معه.. في الصباح الباكر كانت على دراية تامة بكل تفاصيل حياته.. وحتـى أطفاله الأيتـام، كان في قلبها شـوق... همة... حماس لمشاهدتهم ولمّهم... ورتق جراحهم... في قلبها كثير من الحنان... الحب...

طلبت منه رؤيتهم... أصابه ارتباك... خجل... صمت وهو يعدها خيراً..

رن جرس الهاتف.. كانت والدته تصر على حضورهما اليوم وتناول غداء الوليمة معاً.. قفزت فرحاً لعلها تجدهم... ذهبت... لم ترَ أطفالاً...

انتهى الغداء... وأصرت على الذهاب للمنزل وليس للفندق...

كان لها ما أرادت... دخلت... وجدتهم.. كانوا خمسة، كان لأعينهم بريق.. نظرات زائغة.. خائفة.. أكبرهم بالعاشرة.. طفلة ارتسمت على شفتيها ابتسامة خوف باهته، قالت الأخرى من هذه يا أبي ؟

هل هي أستاذة.. أم...؟!

اقتربت الصغرى حبواً.. ثم خطت نحو والدها وتعثرت... فسقطت وبكت.. وهي تمص أصابعها حتى وصلت إليه.. رفعت يدها.. حملها.. ضمها!.. التفتت يميناً.. كان هناك طفلان واحد في التاسعة والآخر في الرابعة من العمر وقد التصقا جنباً إلى جنب محاولين إيهام الجميع بانشغالهم «بالبلاستيشن» ولكن الصغير يسرق النظر بين الحين والآخر بصمت.

انحنت نحو الصغيرة التي تركها واستدار ذاهباً لطارق الباب.. حملتها.. تمردت لاطفتها.. أخرجت لهم بعض الحلوى..

كانت في كل لحظة تحاول الاندساس عبر مقلتي كل واحد منهم... تتحسس من خلال أوجاعها وأحاسيسها الرطبة كل حالة قلق يمر بها زمن الثواني في أعمارهم الغضة... حتى الصغرى.. حتى الصغرى لم تيأس أو تجفل عندما نفرت منها..

خافت من حضنها أن يكون مرقد مُرَاءاة أمام الوجود..

خافت بحسها الطفولي أن تكون مجرد هدف للترقب والانغماس في وسطهم الصغير للوصول إلى غاية!

لـو علمت حجم قلبهـا المليء بالحب الصادق.. بالحنـان.. بالتضحية التـي لا ترجو مـن ورائها غير الوصـول إلى الطريق المـؤدي إلى الجنة.. ورضـى ربها ومرافقة الرسول صلى الله عليه وسلم لما جفلت.. لما رفضت حضنها العطر..

ولكنه تصرف طفولي طبيعي ممن تغيرت عليها رائحة والدتها فجأة...

كانوا شغلها الوحيد وهمها الكبير لاستدراجهم إليها..

كـم ودت أن تصرخ بالفضاء ويتسـرب صوتها عبر قلوبهم قبل آذانهم وتقول بأنها تحبهم... بأن لكل واحد منهم جناحاً كبيراً من الحب والإخلاص باسمه. كانت تعمل على نظافتهم نظافة تامة... رتبت شعرهم المتدلي بلا تصفيف.. عطرتهـم... اطمأنت لأوضاعهم فدخلت المطبخ حاولت إجراء بعض التعديلات بموجوداته...

بعد لحظات خرجت وهي تحمل شطائر شهية.. جلست وسطهم وضمت الصغرى بعدما عملت لها رضعة تهدهدها حتى نامت، شبعوا فناموا..

للمرة الأولى بعد رحيلها ينامون بنعيم..

تأملـت الصغـيرة «فوز» وهـو (اسمها المصغـر)... لها رموش غزيرة وشفة دقيقة وبضع قطرات تسللت عبر مقلتيها الصغيرة نحو الخارج.. وقد استسلمت لغدها المجهول... ترضع أناملها بحرص وكأنها جزء من الأمان.

اطمأنـت عليهـم وخرجت... إلى السـوق.. اشترت أجمـل الثياب لهم جميعاً وعادت مسرعـة... كان قلبها يخفق بشدة حتى رجعت.... انتصف الليل... انسلت من فراشها ودارت بردهات المنزل... تلمست آثار.. عثرت علـى علبة صغيرة تحوي منديلاً وقارورة عطر.. كانت ملفوفة بشكل دقيق

ومخبأة بعناية في أحد الأدراج... سمعت حركة... اختبأت بإحدى الغرف... كان عـزوز الابن الأكبر... يمشي بحذر حتى وصـل، اتجه نحوها.. فتحها اتخـذ زاوية الغرفة وضمهـا؛ كان يستنشقها وهو يهمهـم... غلبه النعاس فنـام... تقدمـت خطوات انحنت استلـت الأشياء من يـده وأمسكت به... ساعدته حتى وصل إلى سريره.. دثرته جيداً قبلته فنام.

في الصبـاح الباكـر... عنـد الشروق سمعـت أصواتهـم... لقد فتحوا أعينهم اليوم أحسن من قبل.. إلا حصة فإنها لم تصح باكراً كباقي الأيام الماضيـة بل غطـت بنوم عميق كأنها أحست بنوع مـن الأمان وعدم تحمل مسؤولية إخوتها الأيتام..

جلست بالقرب من سريرها.. عبثت بشعرها الناعم المضفر.. وعندما فتحـت عينيهـا؛ انتصبت واقفة وهـي تجول بالغرفـة بنظراتها باحثة عن شقيقتها الصغرى..

هـدأت مـن روعها ودعتهـا لتنـاول الإفطار وهـي تبتسـم... فالطفلة الصغـيرة نامـت ليلـة البارحـة في حضنهـا... غمسـت وجههـا الصغير بصدرهـا.. سكنت حركة حصة وهي تحاول إظهـار الاعتذار لنورة زوجة أبيها الطيبة..

إلا أن نـورة ضمتهـا وهـي تقول لها: مـن اليوم وأنا بمثابـة والدتك لا تحملي هما.

كان عبـد الله قد حضر بعدما طلبت منه فحصـ المركبة لكي تأخذهم بنزهـة بحرية.. ركب الجميع وهي تحتضن «فـوز» التي بدأ يتلاشى لديها مصـ أناملها؛ بعدما أحست بالأمان وسط أحضان دافئةٍ وأنفاس عطرة.. طيبة كأنها نسيم بارد استنشقه الصغار فأروى ظمأهم...

أوراق تائهة...

صابر...

كقطع غيوم تربعت وسط السماء السوداء برزت قسماتهم، ترى في ملامحهم البراءة.. تقرأ في نظرتهم الراحة الأبدية.. الخلود، إنهم راحلون إلى دنيا السلام... نائمون نوماً أبدياً لا ينغصه قلق أو هم أو خوف ؟!

كانوا يلعبون... يمرحون... وفي يد أحدهم قطعةٌ من خبز وفي فم الآخر قطعة من فاكهة..

لم تعد ترعبهم أصوات المدافع، فكانت الأرض وقت اهتزازها... وقت زئيرها مجرد موعد للدبكة، عمدوا على أن يجاروها حتى تتناغم أصواتهم الغضة الصغيرة مع صوت القذيفة...

هو عالم... هي دنيا..

كان ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم ملائكة من نور، كل واحد منهم يلقي بالتحية على من همَّ بالرحيل الآن ويعده باللحاق...

في الوجه الآخر للحياة جلست القرفصاء، استعرضت ملابسه التي اختارها للعيد... تأكدت من حلوله في كراسة الواجب...

نظرت إلى الغد من خلال أشعة شمس سقطت سهوا عبر فتحة نافذة مهترئة من جراء القصف، انتصبت واقفة نادت بأعلى صوتها...

صابر.. صابر هناك خطأ في الحل تعال وصححه... نادت مرة أخرى... صابر تعال وارتد ملابس العيد فقد لا أراك وقت حضوره...

العيد... وقت حضوره!؟

لم يعد لدينا عيد.. لم يتسع عالمنا السرمدي لفسحة ولو قصيرة... للحظة فرح مغموسة بمرارة الأوجاع... صابر.. هل صليت قبل أن تنام...

هل أطبقت جفنيك وجسدك طاهر طهارة قلبك ذي الأحد عشر عاماً.. هل سافرت أحلامك الوردية صوب الغد البعيد قبل سفرك هذا..؟

صدمة...

أفاقت على طرقات الدفوف.. الليلة فرحك، أبهرتها الألوان.. ملأت نفسها الغبطة وهي ترى كل هذا لأجلها.. كل الحاضرين احتفالاً وابتهاجاً بها..

دخلت حياته.. كانت كاللبن الأبيض، صافية.. طاهرة... نقية لم تدنسها مغريات الحياة... كانت بالنسبة له عالم ملائكي.. حار بينها وعالمها الناصع وبين عالمه المعتاد... كانت له حبل النجاة لولا تدخل ما حوله من شباك البحارة!

حملت أمتعتها ورحلت.. رفعت وجهها بتقاطيع طفولية إلى السماء.. تمنت بقرارة نفسها أن ييسر لها الأمان... الاطمئنان... رأت بصيصاً من نور بعيد نوعاً ما...

تبعته... تبعته... تبعته... لكنه أتعبها... أتعبها... أنهاها جعلها أشبه ما تكون بورقة تحاول الصمود والإمساك بفرع مستقيم حتى لا ينتصر على عزيمة نفسها فتخور قواها وترى جميع الفروع معوجة!!!

رحيل...

صدرت حركة لها أصوات تنم عن موعد فرح لذلك المنزل الخائف..

اجتمع الأفراد حول مائدة بسيطة، ولكنها تضم لقمة تسد جوعاً ولو أنها على أصوات طرقات كأنها إيقاع قبيلة مغولية تحتفل بكبش للتو أسرته وأشعلت النيران حوله وبدأت الرقص!

كانت تجلس... ترفع يدها الصغيرة.. تدس أناملها الدقيقة اللقمة في حلقها وفي نظرتها إحساس المودع... لم تمهلها القذائف أن تمضغها... اختلطت قطرات دمها بالطعام عندما طاشت من جبينها الصغير ذي السبع سنين وهي ترفع سبابتها وكأنها على علم بموعدها... استشهدت على مرأى من والديها...

كأنها تقول لا وقت للطعام...

وداعاً.. هناك حيث الراحة الأبدية لا قذائف... لا دخان... لا أصوات ترعب القلوب وتعصر الأفئدة.. اللقاء غداً..!!!

ندم...

كتبت لها....

عزيزتي (   ) طوال تلك السنوات والأشهر وأنت تنظرين لي بمنظار الجمود والأنانية ولم تتوقفي عن مذمتي لحظة واحدة حتى نشرت كثيراً من البلبلة بين فرقتنا وأنا صامتة، وسيل من الإحساس ينتابني بين لحظة وأخرى فأكتم وجعي وأجفف ما استطاع أن يفيض عبر مقلتي التائهة.. المصدومة بصداقتك، وأكظم كثيراً من الألم كي لا أدع للأورام بداخلي فرصةً للانفجار..

وأجـدك اليوم تقفين أمامي بضعف... بندم... بإحساس المسيء بحق بريء من تهم لفقت له حتى لا ينجح.. حتى لا يصل..

وأقـول لك هنيئا مـا حققته من نجاح بعد سعيـك لوضع عثرات كثيرة أمامي، فلم يعد يهمني أن أصل، فقد خفق قلبي بشدة، وهزلت حركتي من ثقـل الهموم..وخفـت حماسي وتلاشى طموحي فلم يعـد أمامي متسع من الوقت كي أواصل السير.. وداعـــاً.

خذلان...

موقف...

ســارت عــبر طرقات الحياة تعـزف لحن الوفاء من خـلال ناي حزين كان يرافقهــا... كانت تحاول ترجمة أوجاعها مــن خلال هذه المقطوعات كي ترسم الابتسامة على الشفاه الصامتة... حاولت فك رموز الحيرة.... القلق الذي سكن أضلعها.. لم تستطع !.

رحلـت إلى عالم آخر مليء بأشياء كثيرة.. كبيرة انغمست بأعماقها... ولم تنس تلك العيون الصديقة وهي تبكي لفراقها... انغرست بوجدانها.. فكرت بالعودة إليها... حاولت ولكن...

عنـد وصولها عند اندساسها عبر تلك الأرواح لمست جفافها... اقشعر جسدهــا فلـم تكن دافئة كما كانت بـل تبدل حالها... صــارت تنظر إليها بحقــد... وبنظـرة أخرى.. اتهمتهــا بالجمود... صدمت لتبــدل حالها... حزنت لذلك...

علمت بأن هناك من نشر السم بين القلوب...

دمعة على خد الزمن...

في الغرفة المقابلة لغرفته لم يكن يعلم بأن هناك أوجاعاً تمتزج بها مرارة... شموخٌ قد انكسر منذ أشهر معدودة... ولفلذة كبده الصغيرة ؟!

كانت آلام المخاض شيء فضيع بالنسبة لهزلها.. دارت بها الدنيا حتى كادت لا ترى لغرفتها سقفاً..

تذكرت حين كان الفاصل الوحيد بين منزلهما تلك الحديقة الغناء التي شهدت أشجارها الوارفة أجمل الكلمات وأندى العبارات والوعود...

تذكرت كيف كان يحلف أغلظ الأيمان على صدق نيته وتأكيد وعوده.

وبعودةٍ إلى تلك اللحظات عندما كان قلبها الصغير وحسها الضعيف يرى كلماته درراً تتناثر حولها أطلقت آهة غريبة كأنها نهاية الهواء في رئتيها.. تخرج جزافاً نحو المجهول، نحو الفضاء...

ساعات مرت كأنها دهر كامل يتقطع به أنينها فتغيب عمَّن حولها دقائق ثم تعود فترى كل ما في مكتبتها من كتب ومذكرات... ورسائل بائته يسكنها الصمت والصقيع ؟!.

لحظاتٌ وفجَّر صوت «الوليد» كل حقيقة، كان لزاماً عليها أن تصمت.. معلناً لكل من حولها الدليل الذي يدين ابن عمها بعد أن رفض إتمام الزواج والسفر إلى الخارج بحجة إتمام تعليمه ؟!.

تأملت تلك التقاطيع الصغيرة.. كان صوته يغزو قلبها قبل أذنيها.. لم تكن كبيرة...

دارت بعينيها كشاطئ علا مَده متعدياً الحدود، تحاول إيضاح ما فيه.. ألجمتها المفاجـأة.. فانتفض جسدها الصغير ووالدتها تحمل الطفل وهي بحالة ذهول بعد أن خلصته منها!

وهن قلبها الضعيف.. بكى قلب الطفلة خوفاً على صغيرها من الغياب.. البعد... خوفاً على نفسها من العقاب.

في الخـارج دارت معركة حامية بين والدها وجدتها حين زمجر متوعداً بقتلها.. متسائلاً عما يجري في الداخل.. متسائلاً عن والد الطفل.. من والد الطفل..؟؟

وصمت.. بل انهار عندما تسرب اسم ابن أخيه إلى أذنيه وهي تنتحب..!

نهرتـه والدتـه وهـي تقـول: أتذكر حين رفضـت فكرة ضـم منازلكم بحديقـة واحـدة.. أتذكر حين اتهمتنـي بكرهي لإخوتك مـن أبيك.. هل علمـت مـا كان يخيفني.. لقد لمـح بطلبها حـين كانت بالتاسعـة بأنها له عندما تكبر وصمت!!!.

وماذا بعد هل يعتبر تلميحه أذناً له وشرعاً للارتباط بها دون علمنا!!!

هـذه ابنتك.. بـل طفلتك وها هو طفلها وأبوه هـارب... شارد فماذا أنت فاعل ؟. انقلبـت أحوال المنزل؛ فساده الوجوم وتبدلت السعادة إلى شقـاء حتى عزم على الرحيل منـه بأسرع ما يمكن وهو يتوعد ابن أخيه بأفظع عقاب!!!..

أمـا هي فقد أصاب جسدها الهزل وبـدأت تذبل كما يذبل فرع ريحانة بـين الرياحين.. فهي تصحو لتبكـي وتتأمل حالها متسائلة: لماذا كل هذا..

لمـاذا يهرب مني.. أين هو الآن حتـى يعترف بحقيقة ابننا.. حتى يكون لي الحق بالعيش بسلام ؟!.

لا أستطيـع مقابلة والـدي الذي يكرهني... حتى الصغـير أكاد أسكت نبضه وأكتم أنفاسه حتى لا يسمع بكاءه فيقتله.

تساءلـت في حيرة وألم يموجان في أعماق كبدهـا وهي التي قد سمعت عن ثوب الزفاف وقد وعدها به فور وصوله... أين هو الآن؟؟؟

كانت تهذي... وقد تحولت كتلة من نار تصحو لدقائق وهي تتمتم بطلب الرحمة من الله ثم ترجع إلى مغارتها السرمدية في كمد..

حتـى أتى ذلك اليوم.... كانت تتألم وتتحمل فوق ما يحتمله بشر مثلها لم تتخط بعد الرابعة عشر..

فتحت عينيها.. استلت ورقة من تحت وسادتها وقرأت: سأعود.. وربما لا أعود أتمنى لك حظاً أوفر!!!

أطبقت عينهـا وضمت شفتيها كأنما تنتظر القـادم.. القادم، فقد كانت تحتضر..

مهاجرة بلا أوراق

شريفة...

أرعبهـا ما ينعكس أمامها من خلال المـرآة؛ فها هي تهم بالذهاب إلى المدرسـة، وما إن وقفت للاطمئنـان على هندامها حتى أخافها ما ترى من تجاعيد عديدة تسربت عبر قسمات وجهها الشاحب.

وترجع بها الذاكرة للوراء فتسير بين طرقاتها المتعجرفة وتمر من أمام صباهـا إلى طفولتها التي استوقفتها لتشرحَ لها مراحل الخطأ الذي تخلل حياتها البائسة منذ ذلك الحين.

«شريفـة» نشأت وسط أسرة بسيطة تتكون مـن أب وأم وأشقاء خمسة ذكور، لم يكن ترتيبها يحتل الأخير بل كانت أكبر القطاف.

وتمـر الأيام والأب يخرج صباحاً ويعود مساءً مهدود القوى لكنه راضٍ عن حياته، وهو يشعر بأنه أدى رسالة في الحياة على أكمل وجه.

ويسـير زورق هذه الأسرة على وتيرة واحدة... يكبر الصغار وكل منهم يشق طريقة، وحتى «شريفة» التي احتفل بها والدها بمناسبة تعيينها معلمة في إحدى المدارس صار لها عالم آخر من الأحلام الوردية.

ولكـن ... بدأ الملل يتسرب إلى أحاسيسها ومشاعرها وهي ترى والدها يرفض من يتقـدم لها واحداً تلو الآخر، ويبسط حاجبيه في نهاية كل شهر ليستلم راتبها ويستجيب لكل مشاويرها البسيطة...

حاولت أن تتكلم فلم تستطع.

وذات يـوم فجعـت برحيل والدتها الـذي حوَّل والدهـا بعد ذلك إلى إنسـان عصبي المزاج، حاد الطباع، قاسي التصرفات؛ فبكت حتى أروت وسائدها دموعاً.

وتمر الشهور تليها السنوات ولا جديد؟

واليوم...

اليـوم زفاف آخر العنقـود... أخيها الأصغر، وبذلك اكتمل العقد إلا من حبـة واحدة بدأت جنباتهـا بالضمور... ولا مستجيـب، فوالدها يصر على عدم تزويجها وهو يتهالك في سريره بهزال أطبق عليه عندما كبر وضعف.

ويرحل الوالد بعد صراع مرير مع المرض...

ويستلـم الأخ الأكـبر مهمتـه بعد أن بـاع المنزل ووزع نصيـب كل واحد منهم وضمها إلى أولاده دون إعطائها حقها الشرعي الذي ادعى أنه مقابل عيشها معهم..؟؟!!!.

وتُفاجـأ «شريفـة» بالمنوال نفسه، ولكـن هذه المرة مـن أخيها «سعيد» وتحبـط... وهي تعـود عنـد أذان الظهر مرهقـة محطمة بائسـة لتستلم مهمة إعـداد الغداء له ولزوجته الموظفة ولأطفاله، وتدخل غرفتها منهارة المشاعر تائهة النظرات...

كان يطـرق الباب عليها ليصطحبها إلى أقرب صراف فيسحب رصيد راتبها كل شهر.

لم يخفَ على «أم سلطان» ما كان يجري لها من عذابات فقامت بمهمتها على عجل ..!

اقتربت منها... حدثتها... تلمست عمق المعاناة التي تعيشها... علمت منها بأنها قاربت الثالثة والأربعين دون أمل... دون هدف... تسير وهي تتلفت... تلهث... ترعبها أصوات خطواتها فتقف... تنزوي بصمت !.

انبلج الصباح وبدأت رائحة الشتاء تحمل نفحات عطره و«شريفة» تتقلب في فراشها، ومازالت بقايا الحلم تسكن بين أهدابها الممتلئة بالدموع... فقبل قليل كانت تحتضن والدتها وهي تبشرها خيراً!

قامت على عجل لتفرك أجفانها برقة خوفاً من تلاشي الحلم الجميل.. اغتسلت ولبست وأعدت الإفطار للجميع وخرجت إلى مدرستها!..

قابلتها «الخالة» وهي تبشرها خيراً وتهمس بأذنها أنه في الخمسين من عمره.. توفيت زوجته منذ عشر سنين ورحل أولاده وجحدوه فعاش يعاني الوحدة ونكران الجميل وهو يريدك.. يطلب رفقتك بما تبقى لكما من سنين!!

لاحت عبر قسمات محياها خطوط الفرح فبدت وكأنها ابنة العشرين، ولكن لم تلبث تلك الإشراقة أن اختفت؛ فقد تراءت لها صورة «سعيد» ورفضه المعتاد، فعادت إلى الواقع المرير وهي أنها مجرد أداة للخدمة وجلب المال دون مراعاة لآدميتها المسلوبة ؟!.

ولكن «أم سلطان» تنبهت إلى «عمة» لها لم تنجب وهي كبيرة بالسن وقد فرض على شريفة الذهاب إليها نهاية كل أسبوع وإعداد منزلها وتلبية

خدماتها، إلا أن تلك العمة تختلف عن أخيها كثيراً وعن وأولاده، فهي تتحرق شوقاً لرؤية ابنة أخيها موفقة لكنها لا تستطيع عمل شيء، فقد هد قواها المرض وتخشى جبروت «سعيد» ومنعه شقيقته من الذهاب إليها.

لم يكن يشاطرها همومها مع عمتها غير «أحمد» الأخ الأوسط لها، وهنا أمسكت الخاطبة ذلك الخيط، حيث رتبت لها خطة هروبها من ذلك المعتقل.

لم تنس «شريفة» ابنة أخيها «خلود» تلك النسمة الرقيقة وهي تدخل فرحة مبشرة بنجاحها بتفوق، ووالدها يمسك بالجريدة ويبارك لها ويسألها إلى أي كلية ترغبين الالتحاق بها؟!!.

لكن «خلود» وقفت فجأة بخوف وهي تقول لوالدها أنا سأكتفي بهذا القدر من العلم وألتحق بدور التحفيظ، فما فائدة إكمال دراستي وبعدها أكون بمثل ما هي عليه الآن عمتي «شريفة».

كانت كلمات «خلود» كالصاعقة على رأس والدها وهو يوزع نظراته بينها وبين شقيقته المظلومة «شريفة» التي ذهبت إلى غرفتها على عجل خوفاً من انفجار الموقف.

واليوم ها هي «أم سلطان» تعرض عليها فرصة ما تبقى لها من عمر؛ فهي تمسك بمؤخرة القطار وهو يسير بسرعة رهيبة.

اتفقت معها...

- اليوم يختلف عن غيره، اتصلي بعمتك، اعلميها بالأمر.

- اتفقي مع أخيك «أحمد».

ـ عند عودتـك إلى المنزل كعادتك أعدي الغداء وهيئي المنزل، و فوراً إلى غرفتك أعدي حقيبتك.

ـ أحمد سيكون بانتظارك للذهاب إلى منزل عمتك، فقد اتفقنا معها على أنها طلبتك لأنها مريضة...!.

فعلـت ما قالته لهـا «الخالة» وتم ذهابها إلى عمتهـا وتهيأت على أكمل وجـه، وحضر عريسهـا وأخوها وكتـب كتابها وسط تضاربـات من الفرح الممزوج بالقلق والخوف مما يمكن أن يكون.

اصطدمـت نظـرات كل واحد منهم بالآخر، فقـرأت كل عينٍ ما تحمله الأخـرى من الألم وكأنهما كتاب مفتوح عاهـدا بعضهما على إسعاد الآخر بما تبقى لهما من عمر....

أمـا «سعيد» فقد أفاق علـى الحقيقة التي قصمت ظهـره فأطاحت به أرضاً وهو يـرى شقيقته تهرب منه وتجتنب عالمه القاسي في وقت كان من المفروض منه أن يكـون سندها في الحياة ويعوضها عما لاقته من إجحاف في حقها وطعن لكرامتها كإنسانة لها مشاعر وأحاسيس...

بقي شيء رحل بها إلى عالم السعادة.

اليوم...

وبعد خمسة أشهر من زواجها كانت هناك بذرة تتحرك في أحشائها..

رسالة إلى...

أقبـل الليل... سكنـت الحركة... ليسـ هناك غير أصـوات أبواق بين الفينة و الأخرى وبعض مواء القطط تبحث عما يسد رمقها..

في تلك المدينة.. في تلك الأزقة... كان يتربع منزل صغير.. ترفرف على زواياه معاني السعادة.. بعض منغصات تنتاب ساكنيه بين الفينة والأخرى ولكنهـا سنةالحياة.. فقد قـال تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَـانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ في ذلـك اليوم الكئيـب الحزين كانت نورة قد أتمـت أعمالها المنزلية وجلست للراحة قليلاً؛ فسمعت طرقاً على الباب...

كانت والدة زوجها... أدخلتها مرحبة...

ما هي إلا ثوانٍ وتبعه طرق آخر.. إنه لوالدتها..

سعـدت نورة أيما سعادة بهذه الزيارة وهـي لا تعلم أنها الحد الفاصل لحياتها وبقائها بمنزلها !!!.

لقـد كان بين الوالدتين نقاش حاد تطور حتـى وصل للتشابك بالأيدي؛ فصعقت نورة وهي تخرج من المطبخ و معها القهوة...

لم تستطـع فك الخصام إلا عندما حضر زوجها محاولاً تهدئة الأمور، إلا أن الاشتباك قد رجع من جديد وأشد ضراوة...

وبدأ كيل الشتائم، وصدمت هي عندما سمعت زوجها يرد على والدتها التي أقسمت ألا تجلس ابنتها في منزله بعد اليوم!!!

كانت هناك نظرة انتصار قرأتها نورة على قسمات والدته التي تربعت بفخر وهي تلمز والدتها باستهزاء، وذيلتها بكلمة هزت كيان المنزل عندما ألمحت بأن ابنها مرغوب لدى الجميع، وأنه من سواعد الحظ أن قبل بابنتكم للزواج منها.

ماج المنزل ونورة تطلب من زوجها رد اعتبارها، ووالدتها التي التزمت الصمت وقسماتها تطفح غضباً، إلا أنه لم يعر كلامها أدنى اهتمام.

احتقنت العيون والقلوب حتى صار الابتعاد الوسيلة الوحيدة لرد الاعتبار، أقسمت والدتها أن تزوجها من يستحقها...

ولكنها هي قد سمعت بداخلها أصواتاً لأوراق سعيدة في حياتها..

إنه إنسان متزن ويحبها، ودائماً ما كان يقول لها إنها النبراس الذي يسير خلفه دون خوف.

ولكن في تلك اللحظة المغموسة بالشيطان والانحيازية.. نسي نفسه وصار كمن يهذي بكلمات دون وعي.

توالت الأيام وتبعتها شهور وهو لم يقدم خطوة واحدة... وهو يحترق.. وهو تأخذه العزة.

تم الانفصال... تم المحضور... وهو مرغم.. وهو يتعذب...

بعد سنوات بسيطة...

تزوجت هي.. رحلت مع رجل آخر.. كان منزله يغص بالخدم وكل ما تتمناه..

شعرت بالراحة وفخر الانتصار.. إلا أنها نسيت شيئاً مهماً...؟.

كانت سيارتها الفارهة تشق الطريق... لكنها وحدها... دون مشاركة منه.

ففي المقعد الأمامي السائق الآسيوي وزوجته.. وقد لبسا بأناقة.. وهي بالخلف كسيدة سعيدة من الخارج.. ولكن أعماقها تموج بالحزن..

فها هو الطريق وكأنه هو الذي يسير بجانب سيارتها..

لاح بجانبها مبنى فخماً لمطعم راقٍ، كانت تتناول الغداء به مع زوجها السابق... وها هي القهوة.. المكافأة... التي اتفقا معاً على الجلوس بها وتجديد نشاطهما بعد أن ينام الصغار ويعود من عمله.. ها هي قطرات المطر المتساقطة تهطل على قلبها الباكي تسكن في بجوانب الجفاف مع حياتها الجديدة.. أين هو الآن..؟

إنه في إحدى الدول البعيدة يطارد الصفقات، إنه إنسان آلي... إنسان ألغى من كيانه شيء يقال له إحساس أو تبادل مشاعر...

لا يهمه غير المال.. هي مجرد شكل أسكنه في منزله الفخم أمام المجتمع..

تذكرت أطفالها الصغار التي أصرت والدته على أخذهم... تذكرت منزلها الراقي بمجهودها الشخصي... شتان بين هذا وذاك..؟!

طلبت من السائق إرجاعها للمنزل.. وعند دخولها غرفتها كان رنين الهاتف لا يتوقف.. رفعت السماعة.. صدمها أسوأ خبر في حياتها..

إنه زوجها السابق.. لقد توفي..

كانت والدتها تقول لها ذلك ولم تعلم أنها تتعذب..

تنتحب... تتمنى اللحاق به دون تأخير...

لم تعلم والدتها ما فعلت.. ولم تعلم والدته أنها هدمت حياة.. وشتت أسرة صغيرة كانت تتأمل العيش بسلام...

أما هي فقد أصيبت بالهزال... بحزن كان يفترس كبدها يوماً بعد يوم حتى تحول إلى أورام شديدة لا يمكن معها مواصلة الحياة...

كانت في لحظات الحمى والمرض تفيق من غيبوبتها السرمدية وهي تتخيل أن من أمامها قسماته هو وليست الممرضة فتحاول نطق اسمه والاعتذار.. ولكنها تدخل في غيبوبة من جديد، حتى تناهى إلى أسماع الجميع رحيلها وهي مبتسمة كأنها رأته ينتظرها هناك حيث لا مشاحنات أو أوجاع تفرض على حياتهم نكد العيش..

ساعة رحيـــل...

أُمنيـة...

كان لها ضفيرتان سوداوان كالحرير.. كان لها عينان سوداوان تلمعان بذكاء وحيويـة يكسوهما رمشان كأنهما غابة.. كان لها منطق واعٍ.. راقٍ.. ينم عن حورية..!؟!

كان ألمٌ... لوعـة... يتمخضـان عن دمعٍ حار غزيـر وتلك الصراعات تعبث بكيان والدتها..

كبَّـر الإمام... الصلاة على جنازة...

فاضَ نهرُ الأوجاع عبر مقلتيها، تذكَّرت رأسها الصغير حين ارتفع ليصل نظرهـا نهايـة المئذنـة الحديثة... الكبـيرة.. الأنيقـة وهي تسـأل: متى تبدأ الصلاة في ذاك الجامع... كأنه الحرم... إنه شامخ شموخ ديننا يـا أمي...

الأستـاذة أمـل قالت لنـا: إن لقراءة الآيات نغمة تطـرب الآذان وتبث الطمأنينة في النفس، متى أقف لأصلي!...

بكت حتى غاب الصوت عن مسامعها..

واختفت الرؤية من أمامها وهي تودعها..

والجموع وهي تصلي عليها!!

دون أن تتحقق أمنيتها بالصلاة معها!!

أسمـاء...

بين رعشة الحمى والهزل: استعرضت الوارد... قرأت:

هل يكون صادقاً من يتحدث عن البرد وهو يتصبب عرقاً ؟!

تساءلت كيف يكون الرد!!!

فهـذه أسمـاء التي كثـيراً ما كانت تحـاول فك رموز حيرتهـا واقتحام عالمها الانفرادي..

تلك الفتاة الشامخة الملتزمة ذات التقاطيع الطفولية البريئة.

أمسكت القلـم... أماطت لجامه... كفارس في رمقه الأخير يستجمع بقايا قوة...

كتبت: عزيزتـي أسماء، قد يكون صادقاً عندمـا تسكن أوصاله رعشة المرض والانكسار والإخفـاق بفعل فاعل، فتراه يحلـق... يشعر بشيء من الحاجة إلى الهروب بعيداً حيث القلوب النقية... والأنفاس الطاهرة.. بلا زيف أو أحقاد أو سلطوية.. تبني تنفسها على نبض تلك القلوب.

ارتخـت أناملها... فسقـط القلم وعبث بناصـع البياض بين مد وجزر وهي تفقد الهواء رويداً رويداً!

هزيمة...

كانت نشطة.. أعلنت الطموح وبلوغ المراد، بالرغم من عوائقها صممت على الرحيل نحو الأفق.. هناك بالأعماق أشياء جميلة.. أفكار فريدة.. لم تتخاذل..

وأصرت على خوض المعركة، قاومتها بشراسة.. أتمت مراحل كثيرة في تعليمها.. ألقت بمرساها الثقيل بكبد البحر.. لم يهمها هيجانه.. تقدمت وبالرغم من تلك القيود بأرجلها سارت.. وعند الوصول إلى الهدف.. لا يفصلها عن تحقيقه غير خطوات أطبق أمامها حاجز خرساني كتب عليه.. نأسف لعدم منحك الهدف..

هزيمة نفسية أخرى.. ماذا... لقد تأخرتِ كثيراً..

غاصت بأغوار نفسها المحطمة... أيقظتها رائحة.. حسرة..

انتحار..

إن قلبها يحترق..

أَزِفَ الرحيل...

هنا قسمات باهته كأنها السراب لا أرى غير تلك العينين الغائمة بها،كأنهما بحيرة تميل إلى العتمة.. تراقبني في كل حركة وكل آهة تصدر مني.. تتابع نبض قلبي بشغف.. بخوف يغلفه أمل اليائس من تحقيق أمنية!!!؟

دخل الغسق وأنا وجلة.. يتخبطني القلق.. القلق المغلف بالحزن.. كمن أوشك على فقد نظره في هذه الحياة، تمر الثواني وكأنها دهر كامل..

لحظـات أجد فيها الصمت المطبق.. الشعور.. الإحساس بالغربة.. الغربة الكاملـة لكل انتماء حولي.. لم تعد لأمنياتـي أهمية، فلم تخالجني حسرة عدم تحقيقها..

كان الـكل يراقب تصرفاتي وأنا أتخبط بذاتـي التائهة أحاول إمساك شـيء.. أي شـيء فيها.. فلا وجـود للإحساس، ولم أستطـع الوصول إلى نبضها الضعيف..

تلونـت الحيـاة أمامي وكأنها لعبـة بيد طفل؛ وجهها نحـو صفحة الماء لتعكـس أشعـة الشمس بألـوان متداخلة، تغلـب عليها الزرقـة، هكذا هي لحظات الألم.....

أشارت إلي أن أقترب.. وفعلت.. أمسكتُ بأناملها..؟..

أطبقت على يدي بهزل.. مال جزء من شفتيها كمحاولة للابتسامة وإن كانت متثاقلة.. أوحت لي... لا تجزعي.. لا تجزعي..

فكلنا سنمر من هذا الطريق يوماً ما... راحلون.. نمتطي الأمل نحو غدٍ آخر، ونحن واثقون بعدم تحقيقه.. عندما نرى تلك الشجرة في الصحراء الشاسعـة التي تعني لنا وجود حياة فنلزمهـا، نحط الرحـال حول جذعها وكأننا نتمسك بالنبض..

وعند لحظة المغيب نعي حقيقتنا.. لا نقول المُرة..

فهـذا ركب الحيـاة.. لحظات نغفو بهـا.. تتابع الزفـير.. آخر الثواني للهواء برئتينا نسلمه؛ لنسلم صفحتنا إلى أجلنا المكتوب...

كانت قد أطبقت عيناً وبقيت الأخرى هزيلة.. هناك رغوة حول شفتيها.. زبد النهاية.. هكذا علمت.. عندما تحولت أناملها إلى شتاء قارس..

أوراق تحترق !!!

كان إلحـاح والدي علي بالزواج من تلك الفتـاة أمراً غير طبيعي، فقد كان يضـع يده على قلبـه كلما تقدم لخطبتها أي شاب، حتى أذعنت أخيراً وأعطيت أبي الضوء الأخضر !

لم أكـن أعي ما يرميه والـدي عندما أطل برأسه وهو يهلل بفرح شديد ويـزف لي خـبر الموافقة؛ فقد ذهب إلى والدها بعـد صلاة المغرب وطلبها لي، وبعـد سـؤال والدها لها صمتـت وقد كانوا يعرفـون موافقة الفتاة من صمتها إذا تقدم لها خاطب...

تم كل شـيء، وأنـا يتلبسني الفـرح لخوض تجربة جديـدة ولو أنني لم أتخيلهـا في أي لحظةٍ من اللحظات كأي شاب مقبل على الزواج ويتأمل ما يتمنى أن تكون عليه عروسته من صفات جمال ورقة وأخلاق.

توالـت الأيام وحـان موعد الزفـاف، وفاجأني ما هي عليـه من جمال أخّـاذ وحياء كان يكتسي محياها، فلم تجرؤ أن ترفع عينها إلى عيني مما زادهـا بهاء وفتنة، وانتهى الشهـر الأول، تلاه الشهر الثاني، ثم الآخر وأنا في كل يـوم يبهرني مـا أكتشفه بها مـن مميزات؛ فبالرغم مـن أنها فتاة بسيطـة وافقـت أن تواصل تعليمها بعـد زواجها بي، إلا أنهـا تمتلك ثقافة ليست بالقليلة.

ولكـن.... ذلك الشمـوخ وتلك الأشياء الفريدة مـن حب وإخلاص لم يقنعاني، وقد كنت قد رسمت برأسي لمن سأقترن بها أن تكون موظفة ذات منصب عالٍ أو على الأقل خريجة جامعة حتى تفهمني حسب تخيلي.

ولم يمض على ارتباطنا سوى سنوات كان حصيلتها طفلين جميلين نظيفين حتى انفصلنا؛ وهي التي لا أذكر أنها في يوم من الأيام سعت إلى جرحي أو إهمالي، حتى إنها فضلت مواصلة تعليمها عن طريق الانتساب كي لا تقصر بحقي وبحق أطفالنا !!!

وصدمت مني وصبرت حين استلمت ورقة الانفصال، واحتسبت وهي تدعو الله بالثبات والعوض من عنده..

رحلت أنا عن البلدة التي تعيش فيها..

بل هربت من ذاتي الظالمة وبطشي الشديد مصراً على أخذ أطفالي منها وإيداعهم عند والدتي أمانة؛ مع التشديد عليها بألا تعلم والدتهم بمكانهم..

وتمضي السنوات وها هو المطار يستقبلني بسيئاتي وربما قليل من حسناتي، وأعود عند دخولي منزلنا وسلام والدتي الحار عليّ وصدود والدي عني لما بدر مني بحق ابنة صديقه جارنا..

يصفعني إصرار طفلي وهو يختبئ وراء جدته خوفاً مني محاولاً الإمساك بيد شقيقته معه حتى لا أراهما!

ولأول مره في حياتي أصاب بإحساس فضيع بالندم، إلا أنني وإلى تلك الوهلة لم أفكر بوالدتهم أبداً.

تلفت ذات يوم لأجد سنوات عمري تسابق الرياح دون هدف؛ فقررت أن أضع حداً لذلك وفاتحت والدتي بعد وفاة والدي بسنتين برغبتي بالزواج ومن الإنسانة التي أشعر بأنها تناسبني ومؤهلي الدراسي العالي فتفهم ما أقوله وتناقش معي ما أطلبه منها من أمور مكتبية وعائلية..

وبعـد تفكير وبحـث أخبرت والدتـي باسم عائلتهـا واسمها عن طريق شقيقة أحد أصدقائي المتزوجين !!

وحقيقةً لقد كانت مواصفاتها كما تمنيت منذ زمن بعيد...

وتم كل شـيء وزفـت إليّ وكدت أطير فرحـاً بهـا، إلا أن الأيام تكشف الأقنعة الزائفة...

فقد رفضت وجود أطفالي معها، وكان هذا شرطي فوافقت مرغماً وأنا أعتب على نفسي لماذا أصررت على أخذهم وحرمان والدتهم منهم..

ووجدتهـا أيضـاً غير محترمـه لآرائـي... متكـبرة... متسلطة كل ما يهمها راحتها هي وعدم اطلاعي على خصوصياتها كما تقول؛ فلكل إنسان خصوصيات، ويجب علي احترام ذلك لأنني إنسان مثقف وتعليمي عال.

كمـا أنني أصبت بوعكة صحية ألزمتنـي فراشي أياماً، فوجدتها تأمر الخـدم بخدمتي وتذهب هـي لعملها دون اكتراث بـي، وعندما تعود فإنها تخلـد إلى الراحـة، ودارت بي الدنيا وأنـا أهذي من الحمـى التي تلبست جسدي المنهك، وتراءت لي أم أطفالي بنظافتها وبساطتها وطيبتها وحبها المخلص لي الذي اقتلعته من جذوره ودست علـى نواعم الورود الصغيرة فيه عندما بدأت تشق طريقها إلى السماء..

لقـد رأيتها وسط أوجاعي وشممـت رائحة حسائها الطيب اللذيذ وهي تسقينـي منه، وتضع الكمـادات على رأسي السـاخـن أو تتمتم لي بدعوات حارة بالشفاء العاجل، حتـى وعندما يبكي واحد من الصغار فإنها تسارع لإشغالـه بشيء حتـى لا تبتعد عني، وأنا بهذا الوضـع كان أطفالي بمنتهى الأناقة والجمال، فلم أشاهدهم منذ ولادتهم على وضع غير ذلك..

لقد ضجرت حياتي، حتى صوت الهاتف الذي لا يتوقف رنينه... حتى هو لم يبال بما أشكو من أوجاع الجسد وآلام الضمير...

وعندما أحاول إخماده أو إبعاده عني فإنها تثور وتتكلم بطريقة رسمية بأن علي احترام مواعيدها ومن يتصل بها !!

بعد أيام مما أنا فيه صحوت من سكرتي هذه وقد قررت... عزمت على شيء.... بل كان قلبي يخفق بشدة كلما تذكرت زوجتي السابقة خوفاً من أن تكون قد ارتبطت بغيري.

لقد نفضت ما بقلبي من ظنون، وطلقت زوجتي هذه بل رئيسي وسجاني وخرجت من قيودها إلى الأبد...

وتوجهت على عجل إلى قريتي أسأل عن منزل العم «...» فلم أجده حتى جف ريقي و وتراءت لي الأرض هاوية.. ؟!!

وبحثت حتى قطعت الأمل بالوصول إليها.

وكبر أطفالي بعدما ضممت طفلتي الثالثة البائسة التي تنازلت عنها والدتها بسهولة إلى أطفالي الاثنين اللذين أخذتهم عنوة وقسراً من زوجتي الأولى المتمسكة بهم.

ويدور الزمن وتكبر البنتان والولد وينخرطون بسلك التعليم مثل أقرانهم.

حتى أتى اليوم الذي كان بالنسبة لعالمي صفعة أدب وتهذيب لكياني المتعالي، عندما دخلت ابنتي الصغرى وبيدها ورقة قد احتل اسمها واسمي فقط أولها دون اسم عائلتي وهي تضم مجموعة من أدوية كتبتها

الدكتـورة لها عندما تعرضت لإغماء بسيـط فحملوها إلى غرفة الطبيبة، واتصلـوا بها علـى عجل لتأتي وتتـم كشفها، فكتبت العـلاج وسط دهشة تلبسـت قسمات محياهـا الرقيق وقد خامرها الشـك في تقاطيع صغيرتي التـي أخذت منـي الكثير... ووصفـت طفلتي تلك الدكتـورة بالملاك الذي ينشر الدفء والحنان.

لقـد هالني ما رأيت من ختم حمل اسم الاستشارية د «.....» فاحتقرت نفسي وتفهت دراساتي العليا التي كنت أنظر إليها من خلالها، وعرفت أنها ختمت القرآن غيباً وقت محنتها بعد انفصالنا وحرمانها من أطفالها.

وعزمت علـى أن أنفض جسدي... وقلبـي... وأحاسيسي من جميع ما علق بها من شوائب واستكبار.

فتساقطـت خطايـاي أو أرجـو ذلـك، وحفظـت كتـاب الله الكـريم والتزمت الطريق السوي، وقررت، ولو عن طريق الدعاء بأن يخفف علي مـا أنا فيه من وخـز الإحساس بالذنب ويغفـر لي ويساعدني على تربية أطفالي تربية حسنه.

فقـد تعلمـت درسـاً قاسيـاً، وفهمـت معنى نظـرة أبي ولكن بعـد فوات الأوان.

الحلم الدافئ

تعالى صوتها منادياً...

نهض بفزع وتراءى له بأنها الحرب... صار يعرك أجفانه بشدة وبسرعة، فمازالت بقايا الحلم الجميل تسكن أهدابه ورائحة والدته تتسرب عبر أنفه الصغير.

هَـرْوَل مسرعاً يلبي النداء؛ فلم تكن غير زوجة أبيه كالمعتاد تريده كي يذهب إلى المخبز. ويجلب لها بعض الأغراض من «المتجر» حتى لا يتأخر أولادها عن مدارسهم. فقد تعوَّد على ذلك!!!.

خطف منها المبلغ وخرج على عجل، حتى إذا غاب المنزل عن ناظريه بدأت خطواته تتثاقل وكأنه يشحذ الحلم الجميل بالعودة هو الآن بعيد عنها وعن صراخها ومعاملتها القاسية، ولكن الذي يذهب لا يعود... واليوم إذا انقضى لا يمكن أن يبدأ ذاته ثانية، وسيأتي غداً غيره، تشرق به الشمس من جديد... يحمل أحداثاً أخرى.

وقف أمام المتجر وصار يحلق بالبائع والواقفين دون أن ينقوه؛ بكلمة فقد كان يعيش عالماً آخر... أحداثاً أخرى بعيدة عن جسده المتحرك ونظراته المنطلقة بلا هدف.

لم يفقه غير ارتطامه بإحدى العربات التي أمامه ونهر العامل له: «ألا ترى»؟ استعاد وعيه معتذراً وهو ينظر إلى ساعة الحائط المعلقة أمامه، فيخطف أشياءه ويطلق لخطواته العنان.

حتى إذا وصل المنزل لاهثاً دفع الباب ودلف منه وسط دهشة إخوته التي انتهت بقهقهة عالية وتأنيب زوجة أبيه له لتأخره.

وضع الأشياء على المنضدة ودخل الغرفة المجاورة فبكى ومسح دموعه حتى لا يقال له إنه طفل؛ فهو رجل يبلغ التاسعة الآن، ولكن الجو قارس وأنا جائع وهناك بأمعائي آلام شرسة ترسل إلى كبدي وخزاتها فيساعدها القلب المثقل... حتى تندفع عبراتها عبر بلعومي فتهل أمطار دمعي بالرغم مني!!!.

حدثته نفسه: اخرج فوالدك على وشك النزول من غرفته، اجلس بجانبه لن تستطيع مشاكستك أمامه على الأقل؟!!

خرج وهو يستقبل والده عند الدرج ولم يفاجئه شيء جديد!!

النظرات الغاضبة نفسها بلا سبب؛ وذلك الجبين المقطب عندما يراه.

جلس بقرب السفرة، وبدأت أنامله تمتد إلى الطعام حتى إذا ما وضع اللقمة بفمه صرخ أبوه بوجهه ألم تغسل يديك... ألم أحذرك بألا تأكل قبل غسل يديك!!!.

ازدرد اللقمة المرّة حتى بدت له كأنها قطعة صلبة، تدحرجت عبر بلعومه بصعوبة بالغة.

نَهَضَ مسرعاً فلم يعد هناك وقت... حمل حقيبته والتفت مودعاً السفرة ومن عليها وخرج إلى مدرسته.

كان الطريق طويلاً، والمطر بدأ يتساقط كأنه أصر على مجاراة دموعه.

«ناصر» ذلك الطفل الصغير يحمل بقلبه ثقلاً لا تحتمله الجبال، سلوته الوحيدة حين يختلي بنفسه ويسافر... يسبح خياله بين كتل الغيوم البيضاء.

تلك الغيمة تهمه... يصغي لهمسها تذكره نعومة والدته وتتسرب عبر أنفه الصغير عبق ريحها...

وصل المدرسة وهو لا يعلم كيف؟! فقط عيناه وجسده المتحرك هما من أوصلاه.

انتهى اليوم الدراسي، وأقفل عائداً، كان آخر أيام الدوام فغداً تبدأ إجازة العيد... وصل إلى منزله فأحس بحركة غريبة وهمس!!!

تلبسه نوع من الحزن والإحساس بالغربة... شعر بأنه منفي بلا وطن... بلا انتماء...

اقترب من أقرب إخوته الأقرب إلى سنّه وهمس بأذنه: ما هي الحكاية؟.

رمقه بنظرة استهزاء وهز كتفيه ومضى.

دلف إلى غرفته وألقى بجسده الصغير على سريره وراح يفكر... لم توقظه من غفلته غير «بدور» الشقيقة الصغرى حين دخلت عليه تقول: هيا يا «ناصر» لماذا لم تجهز حقيبتك فبعد قليل سنسافر!!!

نهض إليها وقبلها وطلب منها مساعدته!!!

كان يجمع بعض أغراضه وكل ما يخص البحر...

«بدور» قالت إننا سنسافر إلى البحر ويجب أن أكون جاهزاً حتى لا تغضب مني «خالتي» ويغضب «أبي»!!

حمل حقيبته وهرول ليتخطى درج السلم بعجل... ويجد الجميع متحفزين الكل في عمل....

فاجأته خالته «فوزية» حين قالت له: جاهز هاه !! من قال لك بأنك سترافقنا ؟!.

لم يستطع.... لم يعد يحتمل فليقولوا عنه طفل يبكي؛ فدموعه لم تعطه حتى فرصة للاختباء، أحس بالضيم والقهر.

كانت تلك الدموع المتساقطة غزيرةً جداً كأنها مخزون عام كامل، لم يوقفها غير والده الذي ربت على كتفه وهو يخبره بأنه سيذهب إلى عمته أو خالته حتى عودتهم؛ لأن خالته «فوزية» غاضبة منه ؟!.

التفت إليها باكياً ولأول مرة بعدد سنوات عمره الصغير صرخ بأعلى صوته:

ـ ماذا فعلت؟!... ما هو خطئي بحقك ؟!.. لقد استللت حتى أحلامي الدافئة في لحظة رعب من بين أهدابي و زججت بي إلى الشارع في وقت لم تكن الشمس فيه قد بزغت بحجة واهية وصمت حتى ترضي علي... كرهتِ وجودي بين إخوتي وشدّدتِ عليّ العقاب عندما يتكلم أحد عن ملامحي التي أخذت الكثير من والدتي ولم أخبر والدي ! ماذا تريدين مني ؟!..

ماذا يرضيك ؟!!.

اندفع بعدها إلى الخارج هائماً على وجهه لا يعرف إلى أين يذهب حتى ثقلت خطواته وبدأت تلك الغيوم تستدرجه... تنتشله من عالمه إليها فصار ينظر إلى السماء ويشكلها... ويصورها حتى عثر عليها... نعم هي الغيمة التي تشبه والدته... اقترب منها... مد أنامله الصغيرة إليها...

ما هي إلا لحظات وصوت ارتطام وصرخات كانت وراءه لم تكن غير صرخـات والده محذراً إياه مـن الشاحنة الكبـيرة، ولكن لم يهمه غير شيء واحد..

أنه راحل إلى الحلم الدافئ!!!

ركب الراحلين...

كانـت قريتي تعج بكثير من الصالحـين الأتقياء ولكنَّ... البيوت مقفلة على جراحاتها... وعوزها.. بل وأسرارها.

كانـت حياتي البائسة تحت سلطة زوجـة خالي الجائرة، تزرع في قلبي كثـيراً من الصـبر والتحمل لأنني شعرت بما يشعـر به الغريب حين يدخل البلاد وتصوب نحوه كثير من العيون علامات الاستفهام لقدومه.

في أول يوم لي في منزلهما كانت تغلف نظراتها أشياء غامضة فهمتها بحسي الطفـولي.. كانوا يقولون لي بأنه الحـزن لرحيل والديك، ولكني ألمس غير ذلك، حيـث التقت نظرتها مـع نظرة خالي البعيـد عنا منذ عرفت الحياة...

كانـوا حائريـن.. أين سيكـون مباتـي الليلة، مَـن مِـن الأولاد سيتبرع باستضافة هذه الطفلة الصغيرة البائسة وربما الأقل مستوى في نظرهم!!!

حملـت أمتعتي القليلة واتجهـت نحو غرفتها... نعـم دون أن أنتظر أن تفتك بهما الأفكار والأحاسيس بثقلي...

دلفـت من باب الغرفـة... كان مواربًا وهي واقفـة بيدها مجموعة من الملابس تحاول فرزها للكي.

التفتـت نحـوي.. بل نزلـتْ لمستوى طـولي وهي تحـاول التخفيف عني مرحبة بلجوئي إليها... كان لعينيها بريق... شاطئ فائض.

همست لي... «أنا ماما خلاص حبيبتي أنت ما فيه خوف»!!!

نمت ليلتي وقد فقدت رائحة فراشي النظيف ولون غرفتي البحري وهمهمات أمي وهي تطفئ النور بعد أن تتأكد من نومي.

ولكن لم أنس رفيقة طفولتي.. هدية أبي دميتي الناعمة ذات الشعر الغزير، فقد حضنتها واستسلمت لغدي المجهول فلعل بعد العسر يسراً؛ لأن رحيل والدتي ووالدي فجأة من أمامي لم يكن بالأمر البسيط، بل أصابني نوع من الحزن المغلف بالصمت، والتبلد ولو ظاهرياً أمام الجميع لكي أثبت للجميع بأنني قوية وقادرة على التحمل..

حتى صوت بسملة أبي آخر الليل وقراءته القرآن بصوت شجي كثيراً ما كان يطوف بذهني وأسمعه في كل لحظة هم أو حرج؛ فكان لقلبي الصغير ذي الاثني عشر ربيعاً بلسماً شافياً من الآلام.

تأملت الحياة وأنا أفرح بانقضاء سنواتها وأُعد نفسي بالحياة الأخرى التي تجعلني سيدة منزل صغير ترفرف عليه أشرطة السعادة والتفاهم والحب ولكن!!!

أتممتُ العشرين عاماً وهممت بالواحدة والعشرين لأصحو يوماً على طرقات خفيفة عبر نافذة عالمي كأنها نقش.

نعم لقد دخل حياتي شاب في الثلاثين من عمره يغلفه الصلاح ظاهرياً... يلتزم بأدب الحديث وحسن المعاملة.

وأزفُّ إليه، وتمضي أيامي معه لتصفعني حقيقة طبعه الجاف المنافق حين وقف أمامي رافضاً إكمال ما تبقى لي من سنوات كفاح؛ فلم يكن

هناك سوى شهر واحد... بقيت ثلاثون يوماً على مشروع التخرج.. على تقديم امتحاني الأخير...

بحجة أني تعلمت بما فيه الكفاية و أن (البكالوريوس) سيكون سبباً في إعطائي الإحساس بالمساواة به.

وجاهدته... حتى استلمت وثيقة تخرجي بمرارة والعميدة تبتسم لي بفرح مهنئة لنجاحي، وهي لا تعلم بما يختلط مشاعري من مرارة وألم ممزوجين بالشعور بالخوف والقلق على مصير وثيقتي هذه.

حتى هدأت العاصفة نوعاً ما واستقرت مشاعري وأنا أجاهد لأصل إلى ما في نفسه من ثورات بركانية نحوي.. أجده دائم التضجر من أطفالي... دائم الشكوى من وجوده معي ومعهم!!

أجده يصرح بأن يوم زواجه مني هي الغلطة الكبرى في حياته الكبرى المليئة بالطموح كما يقول؟!.

وأتفاجأ به يوماً وهو يشد الرحال بحجة إكمال تعليمه بعيداً عن هذا العش الصغير!!

فأصمت وقلبي يحدثني بأن أبحث بين طيات الحياة عن مكان لي وهؤلاء الأفواه.. فقد اتضحت الصورة أمامي حقيقة لا حلماً واقعاً لتركيبة شخصيته الحاقدة.. الأنانية.

ويغيب... ويغيب ويطول غيابه حتى تناهى إلى أسماعي خبر حياته الجديدة؛ فأسأل ماذا كان ينقصني... لم يكن هدفه العلم ولم يكن هدفه شيء آخر يرفع به بنيان حياتنا الصغيرة!

لقـد عرفت حياته الأخرى... زوجة بعيـدة كل البعد عن وقارنا.. وعن عاداتنا النابعة من ديننا؛ زوجة أجنبية اختار الحياة معها بعيداً عنا.

والتفت أبحث حتى أخرجتها من بين ركام الأشياء..

كانت تربض عليها خوفاً من الإتلاف.. نعم هي وثيقتي التي ستنتشلني من بين براثن الأوجـاع.. وأخرجتها وكأنني قطرة مطر تائهة انسابت بين فروع الأشجار وتوزعت أجزاؤها على أغصان الحياة!

انخرطت.. وعملت.. ونجحت وأنا أحمد الله كثيرا على عدم توقفي في تلك الأيام.

وقفـت أمـام المرأة عندمـا رأيتها ذات يـوم في مناسبـة ولم يكن يعلم بحضوري ذلك الحفل!؟

قابلتهـا على أنني امرأة أخرى لا تنتمي لحياتها بشيء.. امرأة مطعونة بوجودها الجائر. حدثتهـا... وجدتها قالباً فارغاً مهترئاً، حاولت ترميمه بأنواع كثيرة من المساحيق الباهظة الثمن!!! بالطبع من جيبه هو.

تكلمـت معها عـن كل شيء، وفاجـأني افتقارها إلى أبسـط المعلومات وخاصة الدينية، فهي لا تملك إلا الفتات القليل كمظهر.. وقفت أمام المرأة أقـارن بين قسماتـي وقسماتها... ظهـر لي كثير من الاختلافـات بالطبع لصالحي بلا أنانية أو تهيؤ.

تذكـرت رفض زوجة خـالي المستميت لمن تقدم لي عـدة مرات وكانت بـوادر الصـلاح والهداية قد شكلته قلبـا وقالبا وكان يتمنـى الارتباط بي لنسير معاً صوب الخير..

وقبلتُ بهذا، لم أكن أعلم لم هذا الحقد الدفين نحوي.. لماذا هذا الإحساس بأنني سبب تعاستها طوال إقامتي.. بالرغم من أنني كنت أعيش عالماً خاصاً بي يتقلب وتدخل عليه كثير من التغييرات بحسب تنوع العاملات وتبدلهن..

ولكن لم أنس صديقتي التي تعهدت أن تعاملني كأم منذ دخولي منزل خالي.. وهي التي أصرت على تمديد مدة إقامتها خمس سنوات لأجلي!..

حتى اطمأنت على أنني أصبحت ناضجة.. لي شخصية تستطيع الاعتماد على نفسها في الأوقات الحرجة؟!!!

وفهمت أنني اقتحمت مملكتها.. خاصتها..

فصممت على زجي بمتاهات هذا الزواج الفاشل!، لكنها الظروف هي التي دفعتني وسط أطفالها بالرغم من تجنبي التام للاحتكاك بهما أو بها.

أو إعطاء الحق لنفسي الحق بالمشاركة بأي مناسبة تخص العائلة حتى لا تظهر عواصفها نحوي!

رجعت لواقعي فبكيت ولكن ليس أمام أطفالي..

بل في غرفتي المليئة وبكراسات التصحيح ودفاتر التحضير وأنا أنظف قاربي وأمسح ما علق به من خطوط حائرة وخربشة جائرة، وأتوسط المركب مُلقية بمرساي تاركة زورقي يسير وسط بحر الحياة ليختار الطريق الذي يحفه الأمان ويغلف أجواءه نعمةُ النسيان لألتحق بركب الراحلين!

الفهرس

المقدمة.. 5
1. آه يا ولدي 7
2. جراحات بلا موعد.. 11
3. جواز سفر.. 17
4. بقايا الأمس.. 21
5. شطآن من الدموع.. 27
6. المقص الأسود.. 31
7. البكاء بصمت.. 35
8. صرخة ألم.. 41
9. كرامات مطعونة.. 45
10. أنفاس لا تعود.. 47
11. دعوني ألتقط أوراقي.. 51
12. راحلة عبر مرفأ الذكريات.. 59
13. أوراق متساقطة.. 63

14. رفعة........ 69

15. شاطئ يسكنه الصمت........ 75

16. شواطئ الدنيا........ 79

17. عزوز أحرف تائهة........ 85

18. الخذلان........ 89

19. عندما فقدت ذاتي........ 95

20. قلوب يملؤها الكدر........ 103

21. ليس إلا........ 107

22. مساحات الألم........ 111

23. أنا ومن بعدي الطوفان........ 119

24. ذكريات لن تعود........ 125

25. المطر المسافر........ 133

26. سر اللافندر........ 137

27. مرارة الصمت........ 143

28. الجحود........ 149

29. وأبحرت راحلة........ 155

30. قلوب تتنفس الحب........ 161

31. أوراق تائهة.. 165

32. دمعة على خد الزمن.................................. 169

33. مهاجرة بلا أوراق.................................... 173

34. رسالة إلى.. 179

35. ساعة رحيـل.. 183

36. هزيمة 185

38. أوراق تحترق.. 187

39. الحلم الدافيء... 193

40. ركب الراحلـين...................................... 199

الفهرس.. 205